جامعـــة الأزهـــــر
كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية
كلية معتمدة من الهيئة القومية لضمان جودة التعليم والاعتماد

" مُرَاعَاةُ الْأَصْلِ فِي تَوْجِيهِ مُتَشَابِهِ النَّظْمِ: دِرَاسَةٌ تَفْسِيرِيَّةٌ تَأْصِيلِيَّةٌ"

إعداد

أحمد حسين مهدي الأكرت

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد
في كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة

مجلة كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية العدد الرابع والأربعون، لعام ١٤٤٦هـ-
يونيو ٢٠٢٥م والمودعة بدار الكتب تحت رقم ٢٠٢٤/٦١٥٧ والترقيم الدولي الطباعي
The Online ISSN 2974-4679 و I.S.S.N 2974-4660

" مُرَاعَاةُ الْأَصْلِ فِي تَوْجِيهِ مُتَشَابِهِ النَّظْمِ: دِرَاسَةٌ تَفْسِيرِيَّةٌ تَأْصِيلِيَّةٌ".

أحمد حسين مهدي الأكرت
قسم أصول الدين- كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة- جامعة الأزهر- مصر
البريد الالكتروني: alakrat321@gmail. com

ملخص البحث

تدور هذه الدراسة حول معرفة الأصول التي تمت مراعاتها في دفع موهم التناقض في القرآن الكريم، وبيان المنهجية العلمية الموضوعة للتعامل مع القرآن الكريم، وكيفية الاستفادة من العلوم العقلية واللغوية والكونية في توجيه المتشابه منه؛ للوقوف على هداياته ومقاصده، والدفاع عنه بالحجج القاطعة والبراهين الساطعة.

فهي تهدف إلى إبراز أحد وجوه الإعجاز القرآني، وهو خلوه من التناقض؛ إذ هو فوق مستوى الشبهات، ولا ترقى إلى ساحته المتناقضات، وهذا من شأنه أن يقيم في نفوس المسلمين حياة متجددة، والوقوف على معرفة الصنعة التفسيرية التي انتهجها المفسرون في مراعاة هذه الأصول لرفع إيهام الإشكال، وإزالة الإلباس بين الآيات المتشابهات.

ولذلك تعدد المنهج المتبع في هذا البحث فكان استقرائيًّا تحليليًّا فيه تتبع لاستخراج تلك الأصول وتحليلها عن طريق التأصيل والتدليل، ففيه أيضًا المنهج الوصفيّ التطبيقي الذي يجمع بين التأصيل والتطبيق.

وقد توصلت الدراسة إلى مجموعة من النتائج، منها: أنّ توجيه متشابه النظم القرآني يتطلب تحصيل جانب كبير من العلوم العقلية والعربية والكونية؛ لفهم القرآن الكريم أولًا وللدفاع عنه ثانيا بالحجج القاطعة والبراهين الساطعة، أنه لا بقاء للأصل دون الفرع، ولا وجود للفرع دون الأصل.

وتوصي الدراسة بجملة من التوصيات من أهمها: العمل على توظيف العلوم الإسلامية والعربية لخدمة القرآن الكريم، والدفاع عنه ضد الطاعنين فيه، الربط بين الأصالة والمعاصرة.

الكلمات الافتتاحية: الأصل- الترتيب المصحفي- الأمور الطبيعية- الرسم القرآني- القواعد العربية.

"The Ideal Reading in Directing Similar Verses: An Analytical Interpretive Study"

Ahmed Hussein Mahdi Al-Akratt.

Department of Fundamentals of Religion، Faculty of Islamic and Arabic Studies for Boys، Cairo – Al-Azhar University - Egypt.

Email: alakrat321@gmail. com

Abstract: -

This study revolves around understanding the foundations that scholars have relied upon in addressing the alleged contradictions in the Holy Qur'an. It demonstrates the scientific objectivity in dealing with the Qur'an and how to benefit from rational، linguistic، and contextual sciences in directing the similar verses to understand their objectives and defend them from distortion and fabricated suspicions.The study aims to demonstrate the inimitability of the Qur'an، which is free from contradictions، as it is on a level beyond similar texts and does not fall into the realm of conflicting statements. This is expected to instill in Muslims a renewed sense of faith and a deeper understanding of the interpretive approach adopted by scholars in addressing these issues، aiming to dispel confusion and show the harmony between similar verses.

Therefore، the methodology adopted in this research was analytical and inductive، as it extracted those foundations، analyzed them through deduction and modification، and also employed the descriptive and applicative methodology that combines detail and commentary.

The study concluded with a set of results، including: that the direction of similar verses in the Qur'anic perspective requires mastery of rational، linguistic، Arabic، and contextual sciences to understand the Qur'an first and defend it second using strong evidence and irrefutable proofs. It also concluded that the origin cannot be preserved without preserving its branches، and that no branch exists without a root.The study concludes with a set of recommendations، the most important of which are: the necessity of employing Islamic and Arabic sciences in the service of the Holy Qur'an، and avoiding superficial interpretation. It also emphasizes the link between authenticity and modernity.

Keywords: Origin – Branch – Qur'anic Arrangement – Script – Nature of Qur'anic Drawing – Arabic Rules.

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله القويّ المتين، أنزل كتابه المبين، وجعله تذكرة للمتقين، ومعجزة للعالمين، وأمر عباده بتدبر آياته، وأعانهم فوقفوا على شيء من أسراره، والصلاة والسلام على خير رسله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه،

أما بعد،

فإن التعامل مع القرآن الكريم يتطلب تحصيل جانب كبير من العلم والمعرفة؛ إذ ما فيه من أصول الدين، ومعالم الشريعة، ومكارم الأخلاق، وأسرار الحياة والكون يدعو إلى تثوير القرآن الكريم، وتدبر آياته، وامتلاك كل المقومات التي تعين على فهْم الكتاب العزيز، ولذلك اعتنى علماء الأمة سلفها وخلفها بالقرآن الكريم؛ لأنه مصدر الحماية والوقاية من الانحراف والضلال، الصالح لكل زمانٍ ومكانٍ، الخالي من التناقض والتعارض والاختلاف، فأخذوا يلفتون الأنظار إلى وجوه إعجاز القرآن الكريم، ويبرهنون على أن القرآن الكريم فوق مستوى الشبهات، ولا ترقى إلى ساحته المتناقضات، وظلّت جهود العلماء في هذا الميدان تُبذل حسب الحاجة وقدر الضرورة حتى ألفوا في توجيه متشابه القرآن مما تكررت آياته لفظًا بتقديم بعضها وتأخير آخر، أو تعريف بعضٍ وتنكير بعضٍ وغير ذلك مما يخفى أمره على الكثيرين، ويتمسك بها المشككون والملحدون فيطيرون بها فرحًا؛ إذ يريدون أن يفقد المسلمون الثقة في القرآن الكريم، ولكنّ الله – تعالى – هيّأ من العلماء من يردّون عن القرآن الكريم كيد الطاعنين، وينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، مستفدين في ذلك بالعلوم العقلية واللغوية والكونية، وقد جاء هذا البحث والموسوم بـ "**مراعاة الأصل في توجيه متشابه النظم: دراسة تفسيرية تأصيلية** "؛ ليكشف عن شيء من الأصول التي تمت مراعاتها في توجيه متشابه القرآن الكريم، الأمر الذي يبرز وجوه إعجازه، ويظهر هداياته ومقاصده، في الوقت نفسه يوضح كيف أن علماء المسلمين ينهلون من معين القرآن الكريم ويقفون لإعدائه – الذين

يكيدون له، ويرمونه بالتناقض والاختلاف– بالمرصاد فيبطلون شبهاتهم، ويكشفون عوارها، ويوضحون زيفها وضلالها.

خطة البحث:

ويشتمل هيكل البحث على: مقدمة، وتمهيد، وأربعة مباحث، وخاتمة، وفهارس فنية:

المقدمة: وفيها أهمية الموضوع والحديث عن مكانته، وخطة البحث، وصعوبات البحث، وتساؤلات البحث ومشكلاته، والدراسات السابقة، ومنهجي في البحث.

التمهيد: وفيه أمران: الأول: بيان بمفردات البحث.

الثاني: مراعاة الأصل بين الأصوليين والنحويين والمفسرين.

المبحث الأول: مراعاة الأصل حيث الترتيب المصحفي، وفيه مدخل، وأربعة مطالب:

المدخل وفيه بيان لكون ترتيب السور في القرآن توقيفي، وذكر أقوال العلماء في ذلك.

المطلب الأول: في " تَبِع " و "اتّبع ".

المطلب الثاني: في " أيامًا معدودة " و "أيامًا معدودات ".

المطلب الثالث: في " نجّى " و "أنجى ".

المطلب الرابع: في بيان مَن أرسل إليهم موسى – عليه السلام–.

المبحث الثاني: مراعاة الأصل حيث الأمور الطبيعية، وفيه مدخل، وثلاثة مطالب:

المدخل وفيه بيان بأن من وجوه إعجاز القرآن الكريم اشتماله على العلوم الكونية.

المطلب الأول: في لَهْوِ الحياة الدنيا ولَعِبِهَا.

المطلب الثاني: في الضر والنفع.

المطلب الثالث: في تأكيد المطعوم دون المشروب.

المبحث الثالث: مراعاة الأصل حيث الرسم القرآني، وفيه مدخل، وثلاثة مطالب:

المدخل وفيه بيان لمكانة الرسم القرآني ووجوب مراعاته؛ إذ هو توقيفي.

المطلب الأول: ياء الإضافة بين الإثبات والحذف.

المطلب الثاني: ضمير التكلم بين الإثبات والحذف.

المطلب الثالث: في بيان التسبيح قبل طلوع الشمس وقبل غروبها.

المبحث الرابع: مراعاة الأصل حيث القواعد العربية، وفيه مدخل، وأربعة مطالب:

المدخل وفيه بيان لخصائص اللغة العربية وسماتها، وأنها أحد وجوه إعجاز القرآن الكريم.

المطلب الأول: في بيان علم الله – تعالى – بالمضلين عن سبيله.

المطلب الثاني: " خلائف" بين التعريف والتنكير.

المطلب الثالث: في متعلق الظرف.

المطلب الرابع: في بيان الارتباط بين الفعل والفاعل.

الخاتمة، ثم الفهارس الفنية.

صعوبات البحث:

من أكثر الصعوبات وأشدها التي واجهتني أثناء كتابة هذا البحث هو استخراج تلك الأصول وكيفية توظيفها، وطريقة الاستفادة منها، والقدرة على التدليل عليها، والوقوف على معرفة الصنعة التفسيرية التي انتهجها المفسرون في مراعاة هذه الأصول لرفع إيهام الإشكال، وإزالة الإلباس بين الآيات المتشابهات.

أسئلة البحث ومشكلاته:

هناك مجموعة من التساؤلات دار في إطار الإجابة عنها هذا البحث، تفصح هذه الأسئلة عن مشكلات البحث، وتكمن هذه التساؤلات في تساؤل رئيس يتفرع منه عدة تساؤلات، أما التساؤل الرئيس فهو:

- ما الطريقة المُثلى في توجيه متشابه القرآن الكريم؟ وكيفية التدليل عليها؟

وأما ما يتفرع منه:

١- ما وجه الارتباط بين أصول الفقه وأصول النحو وأصول التفسير؟

٢- كيفية الاستفادة من أصول الفقه في توجيه متشابه القرآن؟

٣- كيفية الاستفادة من العلوم العربية في توجيه متشابه القرآن؟

٤- كيفية الاستفادة من قضايا علوم القرآن في توجيه متشابه القرآن؟

٥- كيفية الاستفادة من الأمور الطبيعية في توجيه متشابه القرآن؟

٦- ما الأشياء الواجب توافرها فيمن يريد تفسير القرآن الكريم ولا سيما المتشابه منه؟

الدراسات السابقة:

من خلال البحث والتنقيب في المصادر والمراجع الخاصة بالدراسات القرآنية ولا سيما المتناوِلة لتوجيه متشابه القرآن، وهي كثيرة ومتوفرة إلا أنني لم أجد من الباحثين من تناول هذا الجانب، أو أشار إلى هذا النوع من الاستنباط على الرغم من كثرة إيراده في المصنفات القرآنية الخاصة بتوجيه متشابه القرآن، مما دعا الحاجة إلى إبرازه ودراسته، والوقوف على مراميه، والدليل عليه والاستفادة منه.

منهجي في البحث،

المنهج المتبع في هذا البحث، فهو متعدد؛ إذ شمل المنهج الاستقرائي التام والمنهج التحليلي الوصفي من خلال التتبع لكلام المفسرين المعنيّين بتوجيه متشابه القرآن والوقوف على ما عوّلوا فيه على الأصل، ثم التحليل لكلامهم بذكر الأدلة التي تكون قد اعتمدوا فيها على مذهبهم هذا، كما أنها ليست دراسة مقتصرة على الجمع لأقوال العلماء وفقط بل إنها عولت على المنهج الوصفي التطبيقي الذي يجمع بين التأصيل والتطبيق.

ثم كانت **إجراءات البحث** بأن قمتُ بذكر أهم الأصول التي اعتمدوا عليها ووضعها في صورة مباحث، واستفتحت كلّ مبحث بمدخل له يميط اللثام عنه ويكشف النقاب، ثم وضع مطالب تتضمن عناوين مناسبة لتلك القضية التي خرج من رحمها مسألة يتم دراستها من حيث بيان مسالك المفسرين وأقوالهم في توجيهها ومناقشتهم لها مؤيدًا ذلك بالأدلة التي استدلوا بها على مذاهبهم وأقوالهم، ثم إيراد الخلاصة التي يمكننا أن نستخلصها من كلامهم والنتيجة التي توصلنا إليها من آرائهم متبعًا المنهج العلمي من حيث التوفيق بين الأقوال ما أمكن، والتدعيم بالأدلة عند الترجيح لأحد الأقوال، وتجنبًا للإطالة وخوفًا من التكرار ذكرتُ المسائل المتشابهة في التناول في هامش المطلب الذي تناول القضية المتشابهة معها.

والله –تعالى – نسأل الإخلاص والقبول، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم البشير النذير.

الباحث

تمهيد

وفيه أمران: الأول: بيان بمفردات البحث، حيث: مراعاة- الأصل- توجيه- متشابه- النظم.

الثاني: مراعاة الأصل بين الأصوليين والنحويين والمفسرين.

الأمر الأول: مفردات البحث:

"مراعاة" مأخوذة من "رعى " الدالة على الملاحظة والمراقبة، والتي فيها معنى النظر والتأمل، فـ " (راعاه) مُرَاعَاة ورعاء لاحظه وراقبه، يُقَال: رَاعى الْأَمر: راقب مصيره، وَنظر فِي عواقبه، وَحفظه وَأبقى عَلَيْهِ، ورعى مَعَه، يُقَال: رَاعى الْجمل الخروف وَفُلَانًا سَمعه أرعاه وَهُوَ لَا يُرَاعِي إِلَيْهِ لَا يلْتَفت إِلَيْهِ ".(١)

"الأصل " مفرد جمعه أصول، وهي تدور على أمرين، هما: الثابت، والأساس، تقول: (أصل) الشَّيْء جعل لَهُ أصلا ثَابتا يبْنى عَلَيْهِ، و(أصل) الشَّيْء أساسه الَّذِي يقوم عَلَيْهِ ومنشؤه الَّذِي ينْبت مِنْهُ.(٢)

وتعتبر كلمة "الأصل" من الكلمات المتفقة المبني المتعددة المعني؛ فقد جاءت على وجوه متنوعة لا يحدد المراد منها إلا في إطار سياقها، قال الكفوي(٣): "والأصول من حيث إنها مبنى وأساس لفرعها سميت قواعد، ومن حيث إنها مسالك واضحة إليها سميت مناهج، ومن حيث إنها علامات لها سميت أعلامًا "(٤)، فهو يشير إلى أن "الأصل " ذات دلالات متعددة، حيث إن العلماء اختلفوا في المراد منه على أمور خمسة حاصلها: ما يبنى عليه غيره، والمحتاج إليه، وما يستند تحقق الشيء له، وما منه الشيء، ومنشأ الشيء.

---

(١) المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية ٣٥٦/١، وينظر: مختار الصحاح للرازي١٢٥/١، مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني صـ٢٦٢ مادة (رعى).

(٢) نهاية السول شرح منهاج الأصول للأسنوي٨/١، تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي٤٥٢/٢٧، المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية٢٠/١ مادة (أصل).

(٣) أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، كان من قضاة الأحناف، من مؤلفاته: الكليّات، توفي بإستانبول سنة ١٦٨٣م. الأعلام للزركلي٣٨/٢.

(٤) الكليات ١٢٢/١ فصل: الألف والصاد.

"**توجيه** " مأخوذ من "وجه " تقول: وجه الشيء جعله على جهة واحدة، والوجه والجهة بمعنى واحد، ووَجْهُ الْكَلَامِ: السبيلُ الَّذِي تَقْصِدُهُ بِهِ.(١)

"**متشابه** " مأخوذ من أشبه الشيءُ الشيءَ، أي: ماثله، وتشابه الشيئان أشبه كل مِنْهُمَا الآخر حَتَّى التبسا، " والْمُتَشَابِهُ من القرآن: ما أشكل تفسيره لمشابهته بغيره، إمّا من حيث اللّفظ، أو من حيث المعنى، فالمتشابه في الجملة ثلاثة أضرب: متشابه من جهة اللّفظ فقط، ومتشابه من جهة المعنى فقط، ومتشابه من جهتهما، والمتشابه من جهة اللّفظ ضربان: أحدهما: يرجع إلى الألفاظ المفردة، ...، والثاني: يرجع إلى جملة الكلام المركّب، وذلك ثلاثة أضرب: ضرب لاختصار الكلام، وضرب لبسط الكلام، **وضرب لنظم الكلام**، ...".(٢)

"**النظم** " فإنها تدور حول معنى التأليف والجمع والاتساق سواء في الأمور المادية أو المعنوية(٣)هذا من حيث اللغة، وفي الاصطلاح، هو: حُسن ترتيب الكلمات في الجملة، بحيث تكون كلّ كلمة في الجملة في محلّها المناسب لها، وهو يقوم على معاني النحو والبلاغة.(٤)

ويمكننا أن نستنتج من هذه المفردات تعريفًا كليًّا لعنوان البحث، هو: بَيَان الْقَوَاعِد الجامعة والضوابط المضطردة عند توجيه ما أُشكل تفسيره لمشابهته بغيره من الآيات، وملاحظة تلك القواعد واستصحابها، ومعرفة حُسن ترتيب الكلمات في الجملة القرآنية، وذلك يكون من خلال تتبع الآيات المتشابهة والتأمل فيها وملاحظة أيّها الأساس الذي بُني عليه غيره في إطار تلك القواعد وهذه الأصول.

---

(١) لسان العرب لابن منظور١٣/٥٥٦، تاج لعروس للزبيدي٣٦/٥٣٦، المعجم الوسيط٢/١٠١٥ مادة (وجه).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن صـ ٣٣٠، وينظر: لسان العرب١٣/٥٥٦، المعجم الوسيط ١/٤٧١ مادة (شبه).

(٣) لسان العرب لابن منظور ١٢/٥٧٨، تاج العروس للزبيدي ٣٣/٤٩٦، المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية ٢/٩٣٣.

(٤) دلائل الإعجاز في علم المعاني صـ ٣٩١، وينظر: الرسالة الشافية صـ١٤١ ضمن رسائل الإعجاز، وينظر: التعريفات للجرجاني صـ ٢٤٢، تاج العروس ٣٣/٤٩٩.

وإنما قيل " مراعاة الأصل" دون " استصحاب الأصل "؛ لأن ما عند المفسرين هي ملاحظة ومراقبة جاءت من خلال التأمل والتدبر في تتبُّعٍ لآيات النص القرآني.

الثاني: مراعاة الأصل بين الأصوليين والنحويين والمفسرين:

الأصل عند الأصوليين: " له أربعة معانٍ: **أحدها**: الدليل، كقولهم: أصل هذه المسألة الكتاب والسنة، أي: دليلهما، ومنه –أيضًا – أصول الفقه، أي: أدلته، **الثاني**: الرجحان، كقولهم الأصل في الكلام الحقيقة، أي: الراجح عند السامع هو الحقيقة لا المجاز، **الثالث**: القاعدة المستمرة، كقولهم إباحة الميتة للمضطر على خلاف الأصل، **الرابع**: الصورة المقيس عليها على اختلاف مذكور في القياس في تفسير الأصل".[١]

ويعتبر استصحاب الأصل أو الحال أحد الأدلة الشرعية التي يعتمد عليها في الفتوى، وبه قال الشافعية وغيرهم، قال الزركشي[٢]: " استصحاب الحال..، ومعناه: أن ما ثبت في الزمن الماضي فالأصل بقاؤه في الزمن المستقبل وهو معنى قولهم الأصل بقاء ما كان على ما كان حتى يوجد المزيل، وهو آخر مدار الفتوى فإن المفتي إذا سئل عن حادثة يطلب حكمها في الكتاب ثم في السنة ثم في الإجماع ثم في القياس فإن لم يجده فيأخذ حكمها من استصحاب الحال في النفي والإثبات فإن كان التردد في زواله فالأصل بقاؤه وإن كان في ثبوته فالأصل عدم ثبوته، وهو حجة يفزع إليها المجتهد إذا لم يجد في الحادثة حجة خاصة، وبه قال الحنابلة والمالكية وأكثر الشافعية والظاهرية سواء كان في النفي أو الإثبات...".[٣]

---

(١) نهاية السول شرح منهاج الأصول للأسنوي ٨/١.

(٢) بدر الدين أبو عبد الله محمد بن بهادر بن عبد الله المصري الزركشي الشافعي، ولد بمصر سنة (٧٤٥هـ=١٣٤٤م) وتوفي به سنة (٧٩٤هـ= ١٣٩٢م)، من كتبه: البحر المحيط في الأصول، البرهان في علوم القرآن وغيرهما. طبقات المفسرين للداوودي ١٦٢/٢، الأعلام للزركلي ٦٠/٦.

(٣) البحر المحيط في أصول الفقه ٣٢٧/٤، وينظر: إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول للشوكاني ١٧٤/٢، أصول الفقه للشيخ محمد أبي زهرة صـ٢٦٦، علم أصول الفقه للشيخ عبد الوهاب خلاف، صـ٩١.

أما النحويون فقد ظهر هذا المصطلح في مصنفاتهم، واعتبروه أحد الأدلة المعتبرة عندهم في الاستدلال(١)، وقد تكلم عنه ابن جني(٢) حيث قال: " باب في إقرار الألفاظ على أوضاعها الأول، ما لم يَدْعُ داعٍ إلى الترك والتحول: من ذلك "أو" إنما أصل وضعها أن تكون لأحد الشيئين أين كانت وكيف تصرفت، فهي عندنا على ذلك، وإن كان بعضهم قد خفي عليه هذا من حالها في بعض الأحوال، حتى دعاه إلى أن نقلها عن أصل بابها".(٣)

والاستصحاب عبارة عن: إبقاء حال اللفظ على ما يستحقه في الأصل عند عدم دليل النقل عن الأصل؛ إذ هو من الأدلة المعتبرة كاستصحاب حال الأصل في الأسماء وهو الإعراب حتى يوجد دليل البناء وحال الأصل في الأفعال وهو البناء حتى يوجد دليل الإعراب.(٤)

والمتأمل فيما جاء عن الأصوليين والنحويين من كلام عن الاستصحاب يجد وكأنه خرج من مشكاة واحدة، وأن النحويين استفادوا من الأصوليين في تأصيل الأدلة التي تبنى عليها القواعد؛ ليتم تناولها وتطبيقها، فكان الاستصحاب والذي هو إبقاء ما كان على ما كان عند عدم الدليل من نقل وإجماع وقياس، وبذلك يكون أحد الأدلة المعتبرة سواء كان عند الأصوليين أو النحويين.

---

(١) وقد أشار د/ عاطف فضل محمد خليل أستاذ مساعد– رئيس قسم اللغة العربية– جامعة الإسراء– إلى أن " أول إشارة وردت بلفظ " استصحاب الحال" كانت عند أبي البركات عبد الرحمن كمال الدين بن محمد الأنباري في القرن السادس الهجري، ثم تناقلها النحويون من بعده، يقول أبو البركات الأنباري: " وأدلة صناعة الإعراب ثلاثة: نقل وقياس واستصحاب حال ". بحث بعنوان: استصحاب الحال بين أصول الفقه وأصول النحو، صـ ١٠. مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها ج١٨، ع٣٦، ربيع الأول ١٤٢٧هـ.

(٢) أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي: من أئمة الأدب والنحو، من كتبه: الخصائص، سر الصناعة، المحتسب في شواذ القراءات وغيرها، توفي ببغداد سنة (٣٩٢هـ= ١٠٠٢م).البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة للفيروزآبادي ١/١٩٤، الأعلام ٤/٢٠٤.

(٣) الخصائص ٢/٤٥٩.

(٤) لمع الأدلة في أصول النحو لابن الأنباري صـ ١٦٧ ت/ أحمد عبد الباسط، ط: دار السلام (١) ١٤٣٩هـ =٢٠١٨م، الاقتراح في أصول النحو للسيوطي، صـ ٣٥٣.

أما علم التفسير فليس ببعيد عن هذين العلميْن، بل هما من أحد أعمدته وأساس بنيانه؛ لأن علم التفسير له أصول يستمد منها كبقية العلوم التي لا بد لها من أصول وقواعد تقوم عليها، وأهم القواعد التي يقوم عليها علم التفسير: علم أصول الفقه وعلوم العربية.

قال ابن جزي(١): " ٠٠وأما أصول الفقه فإنها من أدوات تفسير القرآن، على أن كثيرًا من المفسرين لم يشتغلوا بها، وإنها لنعم العون على فهْم المعاني وترجيح الأقوال، ٠٠٠وأما اللغة فلا بد للمفسّر من حفظ ما ورد في القرآن منها، وأما النحو فلا بد للمفسر من معرفته، وأما علم البيان فهو علم شريف تظهر به فصاحة القرآن".(٢)

الأمر الذي جعل المفسرين ينتهجون نهج الأصوليين والنحويين، فأخذوا يعولون على أصولهم وقواعدهم ويطبقونها، خاصة وأن المفسر يلزمه الإحاطة بعلم أصول الفقه وعلوم العربية، فكان من أصول التفسير عندهم تلك القاعدة والتي برزت بصورة واضحة في متشابه النظم القرآني، وكيف أن الآيات التي تشابه لفظها إلا أن بها تقديما وتأخيرًا، أو تعريفًا وتنكيرًا، أو إفرادًا وجمعًا، أو غير ذلك أن يكون لأحد ذلك التشابه أصلًا جاء عليه، فكان على المفسِّر أن يراعيه وأن يتنبه إليه فيستخرجه ويعول عليه.

وعليه فإن مراعاة الأصل كان أصلًا مهمًا عند أصول التفسير كما هو عند أصول الفقه وأصول النحو.

(١) أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي: فقيه مفسر لغوي أصول، من كتبه: التسهيل لعلوم التنزيل، القوانين الفقهية وغيرهما، توفي سنة (٧٤١هـ= ١٣٤٠م). طبقا المفسرين للداوودي٢/٨٥، الأعلام٥/٣٢٥.

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل ١/١٢، وينظر: التحرير والتنوير ١/١٨.

المبحث الأول: مراعاة الأصل حيث الترتيب المصحفي:

مدخل: من المعلوم أن كل ما بين دفتي المصحف كلام الله –تعالى –، وأن الإجماع منعقد على ذلك(١)، وأن ذلك من مرجّحات كون ترتيب السور في القرآن الكريم توقيفي – وحي جاء به جبريل –عليه السلام – يجب مراعاته، خلافًا لمن ذهب إلى غير ذلك؛ إذ العلماء مختلفون في ترتيب سور القرآن الكريم في المصحف، هل هو توقيفي أو اجتهادي، وقد نقل هذا الاختلاف وذكْر أدلة كل قول ومناقشة هذه الأقوال وبيان الراجح منها علماء علوم القرآن(٢)، وأن محصل كلامهم: أن للعلماء في ترتيب السور فيما هو عليه الآن حيث الترتيب المصحفي **ثلاثة أقوال**:

القول الأول: أن هذا الترتيب إنما كان باجتهاد من الصحابة، وأن خير دليل عليه هو ذلك الاختلاف الموجود في المصاحف قبل عهد سيدنا عثمان بن عفان –رضي الله عنه – إذ لو كان الترتيب توقيفيًّا لما وقع هذا الاختلاف في المصاحف عند الصحابة، ويمكن الجواب عن هذا بأن الاختلاف لم يكن عند جميع الصحابة، وأن البعض الذي ورد عنهم هذا الاختلاف إنما كان لعدم علمهم بالتوقيف، وأنه بمجرد ما ثبت لديهم صحة ثبوت التوقيف إلا وأذعنوا له.

القول الثاني: أن الترتيب كان لبعض السور دون البعض الآخر؛ إذ ما ورد النص عن النبي صلى الله عليه وسلم بالتوقيف كان الترتيب فيها وحيًّا توقيفيًّا، وما لم يرد فإن الترتيب فيه كان اجتهاديًّا توفيقيًّا من الصحابة – رضوان الله عليهم–.

القول الثالث: أن ما جاء من ترتيب للسور القرآنية في المصحف إنما كان وحيّا أتى به النبي صلى الله عليه وسلم وأمر الصحابة به وعلمهم إياه، شأنه في ذلك شأن ترتيب الآيات في السور، وكونه وحيًّا إحدى الدواعي الأساسية في إجماع الصحابة على

---

(١) المنثور في القواعد الفقهية للزركشي ١٢٢/٣.

(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي ٢٥٧/١، الإتقان في علوم القرآن للسيوطي صـ١٩٧، مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني٢٩٧/١.

مصحف سيدنا عثمان بن عفان – رضي الله عنهم جميعًا– وعدم مخالفتهم له، وقبولهم لحرق مصاحفهم.

ونظرًا لتقارب الرؤى بين الأقوال، وأن الاختلاف بينهم واقع في عدم الاتفاق على المحل، ذهب الزركشي إلى الاختلاف بينهم لفظي لا سيما بين القائلين بالاجتهاد في كله والقائلين بالاجتهاد في بعضه؛ إذ يقول: " والخلاف يرجع إلى اللفظ؛ لأن القائل بالثاني يقول: إنّه رمز إليهم بذلك لعلمهم بأسباب نزوله ومواقع كلماته ولهذا قال الإمام مالك: إنما ألفوا القرآن على ما كانوا يسمعونه من النبي صلى الله عليه وسلم مع قوله بأن ترتيب السور اجتهاد منهم فآل الخلاف إلى أنه هل ذلك بتوقيف قولي أم بمجرد استناد فعلي وبحيث بقي لهم فيه مجال للنظر".(١)

و"المختار: أن تأليف السور على هذا الترتيب من رسول الله صلى الله عليه وسلم مأخوذ عنه صلى الله عليه وسلم، وأنه مؤلف من ذلك الوقت وإنما جمع في المصحف على شيء واحد"(٢)، كما أنه "ينبغي احترامه خصوصًا في كتابة المصاحف؛ لأنه عن إجماع الصحابة، والإجماع حجة، ولأن خلافه يجرّ إلى الفتنة ودرء الفتنة وسد ذرائع الفساد واجب".(٣)

ولذلك عوّل العلماء والمفسرون على مراعاة الترتيب المصحفي، وأنه أحد الأسباب التي بها يُدفع إيهام الإشكال بين الآيات، وأقوى الطرق في رفع الإلباس عمن يوهم ظاهره التناقض والاختلاف في نصوص القرآن الكريم، وإليك النماذج والدالة على ذلك.

---

(١) البرهان في علوم القرآن ٢٥٧/١، وينظر: مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني٢٩٧/١.

(٢) البرهان في علوم القرآن ٢٥٨/١، ٢٥٩، وينظر: البرهان في توجيه متشابه القرآن للكرماني ٦٨/١، الإتقان في علوم القرآن صـ ١٩٩ بتصرف.

(٣) مناهل العرفان في علوم القرآن ٣٠٢/١.

المطلب الأول: في " تَبِع " و "اتّبع ":

قال الله –تعالى –: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ ﴾[1]، وقال جل جلاله: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ ﴾[2]

فالآيتان توضحان أن هناك رسالة إلهية تأتي للخلق عن طريق الأنبياء والمرسلين، فمن يتبع ما يأتي به الرسل من رسالات إلهية فإنهم يثابون ولا يعاقبون، فلماذا اختلف الأسلوب بأن جاء الأول: " تبع" بالتخفيف، والثاني: " اتّبع" بالتضعيف؟

دراسة المسألة:

اختلف العلماء في توجيه هاتين الآيتين على قولين:

القول الأول: ذهب أصحابه إلى أن الآية الأولى –حيث آية سورة البقرة – جاءت على الأصل؛ إذ الفعل جاء على مادته الأصلية ومجردًا من الزوائد، بخلاف الآية الثانية –حيث آية سورة طه – جاءت على الفرع؛ لما فيها من الزوائد.

قال الغرناطي[3]: "قوله تعالى في البقرة: "فمن تبع هداى " وفى سورة طه: "فمن اتبع هداى "، هنا سؤالان: ما فائدة اختلافهما، وما وجه تخصيص كل موضع منهما بما اختص به؟ والجواب عنه –والله أعلم: أن "تبع" و"اتبع" محصلان للمعنى على الوفاء، و"تبع " فَعَل، وهو الأصل، و"اتبع " فرع عليه؛ لأنه يزيد عليه وهو منبئ عن زيادة في معنى فعل بمقتضى التضعيف فعلى هذا وبحسب لحظه ورعيه ورد "فمن تبع" و "فمن اتبع " وتقدم في الترتيب المتقرر "فمن تبع "؛ لإنبائه عن الاتباع من غير تعمل ولا تكلف ولا مشقة، وأما "اتبع " فإن هذه البنية أعنى بنية افتعل تنبئ عن تعمل وتحميل للنفس فقدم ما لا تعمل فيه وأخر اتبع لما يقتضيه من الزيادة ولم تكن إحدى العبارتين لتعطى

---

(١) سورة البقرة من الآية (٣٨).

(٢) سورة طه من الآية (١٢٣).

(٣) أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزّبير الثقفيّ الغرناطيّ: من علماء التفسير والنحو والأصول، من كتبه: ملاك التأويل، البرهان في تناسب سور القرآن وغيرهما، توفي سنة (٧٠٨ هـ = ١٣٠٨م). طبقات المفسرين للداوودي ١/٢٧/ الأعلام ١/٨٦.

المجموع، فقدّم ما هو أصل وأخّر ما هو فرع عن الأول وكلاهما هدى ورحمة وورد كل على ما يناسب ويلائم ".[١]

واستدل هؤلاء على ما ذهبوا إليه، بالآتي:

أولًا: القرآن الكريم، وذلك من عدة وجوه، منها: الترتيب المصحفي؛ إذ قد أورد أولًا ما يدل على الاتباع من غير تكلف ولا مشقة وهو الأصل، ثم أورد ثانيًا ما يقتضي مجاهدة من خلال الزيادة في أصل الفعل فجاء افتعل " اتبع" وهو فرع عن الأصل.

ومنها: سياق الآيات: فإنه " لما تقدم في آية البقرة قوله تعالى: " ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾[٢] إلى قوله: ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ ﴾ ولم يرد فيها مما كان من إبليس سوى ما أخبر به تعالى عنه من قوله: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا ﴾[٣] من غير تعرض لكيفية تناوله ما فعل ولا إبداء علة ولا كبير معالجة ناسب هذا: "تبع "، ولما ورد في آية طه ذكر الكيفية في إغوائه بقوله له: ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾[٤] وقد حصل في هذا الإشارة إلى ما بسط من قوله في الأعراف: ﴿ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴾[٥] وقَسَمُه على ذلك، فكان هذه كله قد تحصل مذكورًا في آية طه بما تضمنته من الإشارة إليه، فأفهمت الآية قوة كيد اللعين واستحكام حيلته حتى احتنك الكثير من ذريته وحملهم على عبادة الطواغيت وتلقت النفوس المتعاقبة ذلك منه بقبول فصار تمييز الحق لا يحصل إلا بمعالجة وتعمل فناسبه "فمن اتّبع " كما ناسب ما تقدم في آية البقرة "فمن تبع "، من حيث لم يبسط فيها من كيد اللعين ما بسط في آية طه فورد كل على ما يناسب معنى ونظمًا وإيجازًا وإطالةً بإطالة، ثم إذا لحظ الترتيب فالجاري على رعية تقديم ما هو الأصل وتأخير ما هو الفرع ".[٦]

---

(١) ملاك التأويل ١/٣٠.

(٢) سورة البقرة من الآية (٣٥).

(٣) سورة البقرة من الآية (٣٦).

(٤) سورة طه من الآية (١٢٠).

(٥) سورة الأعراف من الآية (٢٠).

(٦) ينظر: ملاك التأويل ١/٣٠ وما بعدها، ١/٢١٦.

ثانيًا: **القواعد العربية**، والتي تدل على أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، فلكل بناء من أبنية اللغة معنى يخصه،؛ إذ هو "فصل من العربية حسن، ومنه باب فعل وافتعل، نحو قدر واقتدر، فاقتدر أقوى معنى من قولهم: قدر، فإذا كانت الألفاظ أدلة المعاني، ثم زيد فيها شيء، أوجبت القسمة له زيادة المعنى به، وكذلك إن انحرف به عن سمته وهديته كان ذلك دليلًا على حادث متجدد له، وأكثر ذلك أن يكون ما حدث له زائدًا فيه لا منتقصًا منه ".(١)

القول الثاني: ذهب أصحابه إلى أن الآيتين بمعنى واحد؛ إذ لا خلاف عندهم بين "فعل " و " افتعل " فهما بمعنى واحد في كلام العرب، وأن كلّ واحد منهما يقوم مقام الأخر، واختلافهما من باب التنوع في العبارة والتلوين في الأسلوب، وعليه لا خلاف بين "فمن تبع " و "فمن اتبع"، كما لا خلاف بين(كسبت) و(اكتسبت) فهما بمعنى واحد.(٢)

ودليلهم على ما ذهبوا إليه، هو: كلام العرب شعرًا كان أو نثرًا، فمن الشعر:

وَمُطْعَمُ الصَّيْدِ هَبَّالٌ لبُغْيَتِهِ ألفى أباهُ بذاكَ الكسبِ يكتسبُ.(٣)

كما أن " افتعل" قد (يجيء بمعنى "فَعلَ"، لا يُراد به زيادةُ معنى، وتلزمه الزيادةُ، نحوَ: "افتقر" في معنى "فَقُرَ"؛ ولذلك تقول في الفاعل منه: "فَقِير". جاؤوا به على المعنى، ومن ذلك "اشتد"، فهو "شديد"، و"استلم الحجرَ". ولا يستعمل "سَلَمَ" ولا "يَسْلُمُ").(٤)

الخلاصة:

مما سبق يتضح أن القول الأول راجح وسديد، وأن القول الثاني مرجوح وبعيد، وذلك لعدة أسباب منها:

---

(١) الخصائص ٢٦٨/٣ وما بعدها بتصرف، وينظر: شرح شافية ابن الحاجب للرضي ١١٠/١.

(٢) التحرير والتنوير١٣٧/٣، وينظر: التفسير البسيط للواحدي ٥٣٣/٤، مفاتيح الغيب للرازي١١٨/٨.

(٣) البيت لذي الرمة: ديوان ذو الرمة، صـ ٩، وينظر: مجمع الأمثال للميداني ٢٩٤/٢.
وجه الشاهد: أنه جمع بين فعل وافتعل، مما يدل على أنهما بمعنى واحد.

(٤) شرح المفصل لابن يعيش١٦١/٧.

أولًا: **سياق الآيات**؛ إذ القول الذي يؤيده النظم القرآني ويدل عليه سياق الآيات مقدم على غيره(١)، وهو ما وجّه به العلماء الآيتين، فقيل بأن " فَعل التي جاء على وزنها: تبع لا يلزم منه مخالفة الفعل قبله، وافتعل التي جاء على وزنها: اتبع يشعر بتجديد الفعل، وبيان قصة آدم هنا لفعله، فجئ بـ "تَبِعَ هُدَايَ "، وفى طه جاء بعد قوله: " وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا "(٢)، " وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى "(٣)، فناسب من اتبع، أي: جدد قصد الاتباع "(٤).

ثانيًا: **النصوص القرآنية**، والتي تدل على أن " فعل" إنما تأتي حيث العمل من غير كدّ ولا اجتهاد، بخلاف "افتعل " إنما تأتي حيث الاعتمال وبلوغ الجد والمشقة، ولذلك غالبًا ما يخاطب به العصاة والمذنبين، قال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ﴾(٥)، وقال: ﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾(٦).

والله – تعالى– أعلم بأسرار كتابه.

(١) قوعد الترجيح عند المفسرين د حسين الحربي ٢٩٩/١.
(٢) سورة طه من الآية (١١٥).
(٣) سورة طه من الآية (١٢١).
(٤) كشف المعاني لابن جماعة صـ ٩٣، وينظر: فتح الرحمن لزكريا الأنصاري، صـ ٢٢، نظم الدرر للبقاعي ٢٩٨/١، ٣٦١/١٢.
(٥) سورة القصص من الآية (٥٠).
(٦) سورة الروم من الآية (٢٩).

المطلب الثاني: في " أياماً معدودة " و "أياماً معدودات ":

قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً ﴾[1]، وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَٰتٖ ﴾[2]

ذكرت الآيتان نوعًا من افتراءات أهل الكتاب وضلالاتهم، والذي ليس عليه دليل منقول ولا معقول، وإنما هو كذب وبهتان، وأن من افترائهم على الله –تعالى– قولهم بأن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودة، فما الفرق إذًا بين الآيتين، حيث اختلاف الصفة، بأن جاءت في سورة البقرة مفردة –معدودة –، وفي سورة آل عمران جمعًا –معدودات –، والموصوف واحد، وهو قوله: «أيامًا»؟

دراسة المسألة:

اختلف المفسرون في توجيه هاتين الآيتين على قولين:

القول الأول: ذهب أصحابه إلى أن في هاتين الآيتين جمعًا بين الأصل والفرع، حيث جاءت في سورة البقرة على الأصل؛ لِمَا أن الموصوف وهو " أيامًا" جمع تكسير لغير العاقل والمطرد في هذه الصيغة أن يكون صفتها مفردة، وقد يجوز أن توصف بجمع المؤنث السالم ليقابل جمعًا بجمع، ولذلك جاءت في سورة آل عمران على الفرع ليجمع بين الأصل والجائز في الاستعمال.

قال الشيخ زكريا الأنصاري: " إن قلتَ: لمَ قال هنا " معدودة " وفي آل عمران " معدودات "؟ قلتُ: إشارة إلى الجمع بين الأصل والفرعِ، إذِ الأصلُ في الجمع بالألف والتَّاء إذا كان واحده مذكَّراَ، أن يُقتصر في الوصف على تأنيثه مفرداً كقوله تعالى " فيها سُرر

(١) سورة البقرة من الآية (٨٠).

(٢) سورة آل عمران من الآية (٢٤).

مَرْفوعةٌ " وقد يأتي " سُرُرٌ مرفوعاتٌ " على الجمع، فهو فرع عن الأول، فذكر في " البقرة " على الأصل، لكونها أول، وفي " آل عمران " على الفرع".(١)

واستدلوا على ذلك بما يلي:

أولًا: بالاطراد وكثرة الاستعمال القرآني، قال الله تعالى: ﴿ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾(٢)، وقوله: ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴾(٣)، وقوله ﴿ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾(٤)

وجه الدلالة: أن هذه الآيات فيها جمع تكسير وصف بالإفراد، بل إن المفرد وصف به جمع تكسير، وعليه " فلما كان " معدودة" من المطرد المستمر استعمل لفظها في الأول، ولما كان الجمع بالألف والتاء في الأصل قد يكون فيما واحده مذكرًا وإن قل، وكان على سبيل من سبيل المجاز استعمل ذلك فيه كقوله تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ﴾(٥) وقال: ﴿ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ ﴾(٦)، فمعدودة المذكورة في الآية التي في هذه السورة مستمرة في بابها وباب غيرها، والجمع بالألف والتاء ليس بمستمر، وإنما هو على ضرب من التشبيه بما أصله الألف والتاء، فكان استعمالها أولا أولى، ولجواز الألف والتاء على غير طريق الاستمرار استعمل في الثاني ليشمل الأصل والجائز بالاستعمال..".(٧)

ثانيًا: مراعاة الترتيب المصحفي، فقد " جاء في البقرة على الأصل؛ لأنها الأولى، وجاء في آل عمران على الفرع؛ لأنها الثانية".(٨)

---

(١) فتح الرحمن بكشف عما يلتبس في القرآن صـ ٣٣.

(٢) سورة البقرة من الآية (٢٥).

(٣) سورة الغاشية الآية (١٣- ١٥).

(٤) سورة الإنسان من الآية (٢).

(٥) سورة البقرة من الآية (٢٠٣).

(٦) سورة الحج من الآية (٢٨).

(٧) درة التنزيل وغرة التأويل للإسكافي، صـ ٢٦٠.

(٨) غرائب التفسير وعجائب التأويل للكرماني ١/١٥٤.

وقد ذهب إلى هذا القول جمهور المفسرين.(١)

القول الثاني: ذهب أصحابه إلى أن كلا الاستعمالين فصيح، وأن الاختلاف إنما هو من باب التفنن في العبارة والتلوين في الأسلوب؛ إذ جمع التكسير يجوز فيه الأمران – الإفراد والجمع–، وأن ذلك مقيس مطرد فيه.(٢)

ودليلهم على ما ذهبوا إليه: القواعد العربية، حيث إنه " لا بد من مطابقة النعت للمنعوت إلا في حالات، منها: أن يكون المنعوت جمع مذكر غير عاقل، وذلك يشمل جمع التكسير للمذكر غير العاقل أي: جمع التكسير الذي يكون مفرده مذكرًا غير عاقل..."(٣)

وإذا كان الاستعمالان جائزين، فما السر في إيثار سورة البقرة بالإفراد وسورة آل عمران بالجمع؟ أجيب بأمور منها: أنه تفنن في التعبير(٤)، أو أنه من باب الإيجاز في الإفراد والإطالة والإسهاب في الجمع، حيث بسط لحالهم الحامل على سوء مرتكبهم ولم يقع في سورة البقرة تعرض لشيء من ذلك بل أوجز القول ولم يذكر سببه فناسب الإفراد الإيجاز وناسب الجمع الاسهاب.(٥)

وقد ذهب إلى هذا القول بعض المفسرين.(٦)

---

(١) الرازي في مفاتيح الغيب ١٣٦/٣، والإسكافي في درة التنزيل صـ ٢٦٠، والكرماني في غرائب التفسير ١٥٤/١ وفي البرهان في توجيه متشابه القرآن صـ ٧٦، زكريا الأنصاري في فتح الرحمن صـ ٣٣، الفيروز آبادي في بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ١٤٥/١، العكبري في إملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات ٨٨/١.

(٢) البحر المحيط في التفسير ٨٣/٣.

(٣) النحو الوافي د / عباس حسن ٤٤٦/٣، ضياء السالك إلى أوضح المسالك ١٣٤/٣.

(٤) تفسير الآلوسي ٤١٠/٢.

(٥) ملاك التأويل للغرناطي ٢٢٤/١.

(٦) أبو حيان في المحيط ٨٣/٣، والآلوسي في روح المعاني ٤١٠/٢، الغرناطي في ملاك التأويل ٢٢٤/١، الطاهر ابن عاشور في التحرير والتنوير ١٨١/٢.

الخلاصة:

أن القول الأول هو الأولى بالصواب، ذلك أنه وجّه الآيتين حيث مراعاة الأصل في سورة البقرة والفرع في سورة آل عمران مستدلًا على ذلك بالترتيب المصحفي، ومعتمدًا على الاطراد وكثرة الاستعمال الوارد في القرآن الكريم(١)، فإنه كثير ما جاء جمع التكسير موصوفًا بصفة الإفراد كالآيات السابقة التي استشهدوا بها، مما يدل على أن القرآن الكريم هو الأصل الذي تقاس عليه القواعد ولا سيما النحوية منها، الأمر الذي يدفع إلى معرفة الأسرار البلاغية والحكمة الربانية من اختلاف الأسلوبين، وذلك ما تنوعت فيه أقوال المفسرين، حتى قيل: " كَأَنَّهُمْ قَالُوا أَولا بطول الْمدَّة الَّتِي تمسهم فِيهَا النَّار، ثمَّ تراجعوا عَنهُ فقصروا تِلْكَ الْمدَّة"(٢)، وقيل: " أنه أجرى معدودات على لفظ أيام وقابل الجمع بالجمع مجازا والأصل معدودة "(٣)، وقيل: " أنهما فرقتان: إحداهما قالت: إنما نعذب بالنار سبعة أيام، وهي عدد أيام الدنيا، وقالت فرقة: إنما نعذب أربعين يوما، وهي أيام عبادتهم العجل، فآية البقرة يحتمل قصد الفرقة الثانية، وآية آل عمران يحتمل قصد الفرقة الأولى".(٤)

والله – تعالى– أعلم أسرار كتابه.

---

(١) قواعد الترجيح عند المفسرين ٣٦٩/٢.

(٢) درة الغواص في أوهام الخواص للحريري ٩٠/١.

(٣) إملاء ما منّ به الرحمن ٨٨/١.

(٤) كشف المعاني في المتشابه من المثاني صـ ١٠٣.

المطلب الثالث: في " نجّى " و "أنجى ":

قوله تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾[1]، وقوله جل جلاله: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾.[2]

فالآيتان تتحدثان عن نجاة سيدنا نوح – عليه السلام– والمؤمنين به، وهلاك المكذبين به، فلماذا اختلف الأسلوب حيث جاء التعبير عن الإنجاء في الآية الأولى بالهمزة " فَأَنجَيْنَٰهُ " بينما في الآية الثانية جاء بالتضعيف "فَنَجَّيْنَٰهُ"؟

دراسة المسألة:

اختلف العلماء في توجيه هاتين الآيتين – من إن التعبيرين بمعنى واحد أم هما مختلفان، وإن كانا مختلفين ما السر في التعبير عن أحدهما بالهمزة والأخرى بالتضعيف– على **قولين**:

القول الأول: ذهب أصحابه إلى أن التعبير بالهمزة هو الأصل؛ إذ إن التعدي بالهمزة كثر وروده ومجيئه في القرآن الكريم، وأن الهمزة أم الباب في التعدي، ثم يأتي بعدها في التعدي التضعيف ثم غيره من أسباب التعدي، وقد كان مجيئها في أول القرآن مراعاة لأصلها.

قال الإسكافي[3]: (للسائل أن يسأل فيقول: لِمَ اختصت الآية الأولى بقوله (فأنجيناه والذين معه) والثانية بقوله: (فنجيناه ومن معه) ....؟ **والجواب أن يقال**: السورتان مكيتان

---

(١) سورة الأعراف من الآية (٦٤).

(٢) سورة يونس من الآية (٧٣).

(٣) أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب الإسكافي، عالم باللغة والأدب والتفسير، من كتبه: درة التنزيل وغرة التأويل، مبادئ اللغة وغيرهما، توفي سنة (٤٢٠هـ = ١٠٢٩م). كشف الظنون لحاجي خليفة٢/١٥٧٩، الأعلام٦/٢٢٧.

جميعا، إلا الآية في سورة الأعراف، وقوله: أنجينا أصل في هذا الباب؛ لأنّ "أفعلت " في باب النقل أصل لـ "فعلت " وهو أكثر، تقول: نجا، وأنجيته ...، فالآية الأولى جاءت على الأصل الأكثر، ولهذا أكثر ما جاء في القرآن جاء على أنجيناه كقوله تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾[1]، وكقوله: ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴾[2]، وكقوله: ﴿ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾[3]...).[4]

واستدل هؤلاء على ما ذهبوا إليه بعدة أمور منها:

أولًا: اطراده في القرآن الكريم، حيث كثر مجيء الإنجاء متعديا في الهمزة في آيات متعددة في كتاب الله – تعالى– منها ما سبق ذكره آنفًا مما أورده الإسكافي.

ثانيًا: الترتيب المصحفي، ولما كان أول ورود لقصة نوح – عليه السلام– مع قومه حيث سورة الأعراف فناسب أن يوضع فيها ما هو أصل كل شيء، وذلك ما بينه ووضحه الغرناطي حيث ذكر بأن " ترتيب السور مراعى وترتيب الآي في هذا الحكم أولى وأبين، وأنه إذا تقرر هذا فلا بُدّ من معرفة أن الأصل في النقل يكون بالهمزة، وأما النقل بالتضعيف والباء وغيرهما فثانٍ عن الأصل"، وأن مراعاة الأصل لم يأت في الفعل وتعديه بالهمزة وفقط بل راعي فيه ما هو بعده من اسم الموصول، حيث " إن سورة الأعراف ورد فيها قوله: "فأنجيناه والذين معه " كلّ منهما على الأصل في نقل الفعل وفى الموصول فقيل: "فأنجيناه " وقيل: "والذين معه " وورد ذلك في سورة يونس على ما هو ثان عن الأصل في النقل وفى الموصول رعيًا للترتيب ولا يمكن العكس على هذا".[5]

---

(١) سورة الأعراف من الآية (٧٢).

(٢) سورة الشعراء الآية (٦٥).

(٣) سورة العنكبوت من الآية (٢٤).

(٤) درة التنزيل وغرة التأويل ٦٠٧/٢ وما بعدها.

(٥) ملاك التأويل ١٩٨/١ بتصرف.

ثالثًا: **القواعد العربية**، وهو أن الأكثر في الهمزة النقل – بمعنى نقل معنى الفعل إلى مفعوله، ويصبح الفاعل بها مفعولًا–، وفي التضعيف التكثير.[١]

القول الثاني: ذهب أصحابه إلى أن الفعلين بمعنى واحد، وأنه لا فرق في التعدي بين الهمزة والتضعيف؛ إذ هما لغتان، وكلاهما من أسباب التعدي، وعليه قد يتعاقب الهمزة والتضعيف، وقد جاء بهما القرآن الكريم، ففي (التنزيل: "فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ "[٢]، "فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ "[٣]، وفيه: " وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا "[٤] ...).[٥]

واستدل هؤلاء على ما ذهبوا إليه بالآتي:

أولًا: ورود الأمرين معًا في القرآن الكريم، فتارة جاء الفعل في القرآن الكريم متعديًا بالهمزة، وتارة جاء بالتضعيف، مما يدل على استواء الأمرين، وأن كلًّا منها أصلٌ.

ثانيًا: **القراءات القرآنية**، وهي بمنزلة آية من كتاب الله – تعالى–، وأن خير من يفسر القرآن القرآن، من ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم ﴾[٦]، فقد قرأ عاصم وحمزة والكسائي بالتشديد، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بالتخفيف[٧]، وقد وجّه العلماء القراءتين بأنهم قد " جمعوا بين التعدية بالهمزة والتضعيف"[٨]، وأن "أنجى " و "نجّى" بمعنى واحد،

(١) ينظر: الكتاب لسيبويه ٥٥/٤ وما بعدها، شرح شافية ابن الحاجب٩٢/١.
(٢) سورة العنكبوت من الآية (٢٤).
(٣) سورة الأعراف من الآية (٦٢).
(٤) سورة فصلت من الآية (١٨).
(٥) التفسير البسيط ١٩٨/٨.
(٦) سورة الأنعام من الآية (٦٣).
(٧) النشر في القراءات العشر لابن الجزري ٢٥٩/٢.
(٨) البحر المحيط في التفسير ٥٤٢/٤.

" يقال: أنجَيتُه ونجَّيته بمعنى واحد"(١)، وأنه " إذا جاء التنزيل باللغتين جميعًا تبيّنت استواء القراءتين في الحسن ".(٢)

الخلاصة:

مما سبق يمكن استخلاص أن القول الأول أولى بالتوجيه، وأقرب للصواب، وأعنى بالتعويل، وذلك للأسباب الآتية:

أولًا: **القاعدة الترجيحية** والتي تقول: "حمل معاني كلام الله – تعالى– على الغالب من أسلوب القرآن ومعهود استعماله اولى من الخروج به عن ذلك "(٣)، فإنه وإن ورد مجيء الفعل مرة متعديًا بالهمزة وأخرى بالتضعيف إلا أن أكثر استعماله بالهمزة، مما أمكن جعله الغالب وأنه الأصل.

ثانيًا: أن جمهور العلماء على أن الأصل في الموصولات هو لفظ " الذي"؛ لأنه لا تخرج عن الموصولية بخلاف "من " فإنها وإن كانت موصولة فإنه يمكن تخرج عن الموصولية بأن تكون استفهامية أو شرطية، الأمر الذي يجعل أن الأصل بالأصل أولى كما أن الفرع بالفرع أولى، وذلك ما أفاده ابن الزبير، حيث قال: " أن لفظ الذى وما تصرف منه للمثنى والمجموع أصل فى الموصولات إذ لا يخرج لفظ الذى عن الموصولية أما من فإنها تخرج إلى الاستفهام والشرط وغيرهما٠٠، فإذا قرر ما ذكرناه فنقول إن سورة الأعراف ورد فيها قوله: "فأنجيناه والذين معه " كل منهما على الأصل في نقل الفعل وفى الموصول فقيل: "فأنجيناه " وقيل: "والذين معه " وورد ذلك في سورة يونس على ما هو ثان عن الأصل في النقل وفى الموصول رعيا للترتيب ولا يمكن العكس على هذا".(٤)

---

(١) معاني القراءات للأزهري ٣٦٢/١.

(٢) التفسير البسيط للواحدي ١٩٨/٨، مفاتيح الغيب ١٨/١٣.

(٣) قواعد الترجيح عند المفسرين ١٧٢/١.

(٤) ملاك التأويل ١٩٨/١، وينظر: نظم الدرر ٤٣٠/٧.

بقي أمر يجب التنبه له والتعويل عليه، وهو: ما السر في أن تضعيف فعل الإنجاء ورد في سورة يونس دون سورة الأعراف، وهل التضعيف الوارد في قوله تعالى: "فَنَجَّيْنَهُ" للتكثير أم لا؟ للإجابة عن هذا السؤال، نقول: بأن الإسكافي ذكر بأن التضعيف في (نجيناه) ليس للكثرة، وإنما هي المعاقبة للهمزة بدلالة قوله تعالى في ذي النون: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ﴾[1] ولا كثرة هناك).[2]

وهذا غير صحيح، فالتشديد يدل على الكثرة والمبالغة[3]، والمعنى: أن قوم نوح – عليه السلام– " لم يزدهم شيء من هذه البراهين الساطعة والدلائل القاطعة إلا إدباراً، وكانوا في آخر المدة على مثل ما كانوا عليه من التكذيب ﴿فنجيناه﴾ أي تنجية عظيمة بما لنا من العظمة الباهرة بسبب امتثاله لأوامرنا وصدق اعتماده علينا ".[4]

لأجل هذا ورد التضعيف في سورة يونس؛ لأن القصة جاءت " في سياق إقامة الحجج على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم في دعوى الوحي وكون القرآن من عند الله لا من عنده ورأيه وكلامه، فهي متسقة ومقصود السورة، حيث الاحتجاج على مشركي مكة وما حولها وسائر من تبلغهم الدعوة من المكذبين، بأن الله – تعالى– سيخذلهم وينصر رسوله عليهم كما نصر من قبله من الرسل على أقوامهم المجرمين، فأهلكهم وأنجى المؤمنين، بخلاف ما في سورة الأعراف أوردت مستقله، لا تفسيرًا ولا تفصيلًا لجمل

(١) سورة الأنبياء من الآية (٨٨).
(٢) درة التنزيل وغرة التأويل٢/٦٠٧.
(٣) البرهان في توجيه متشابه القرآن ١/١٢٢، بصائر ذوي التمييز ١/٢١٢.
(٤) نظم الدرر ٩/١٦٥.

قبلها"[1]، ولذلك فإن أكثر آيات الإنجاء[2] الواردة في سورة الأعراف دون تضعيف، كما أن سورة يونس تحدثت عن جملة من الكلمات ومجموعة من القضايا أوردها نوح – عليه السلام– لقومه، الأمر الذي يتطلب تكرر الإنجاء بتكرر الهلاك قال تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾[3]بخلاف ما في سورة الأعراف.[4]

والله –تعالى– أعلم بأسرار كتابه.

---

(١) تفسير المنار ٣٨٥/١١.

(٢) كقوله تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ الأعراف: ٧٢، وقوله: ﴿ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ ﴾ الأعراف: ٨٣، وقوله: ﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ الأعراف: ١٤١، وقوله: ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ ﴾ الأعراف: ١٦٥.

(٣) سورة يونس الآية (٧١).

(٤) ومما يندرج تحت هذا المطلب حيث التعدي وذكْر أحد أسبابه وهو الباء قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ﴾البقرة: ١٧٣ ، وقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ المائدة: ٣ ، والأنعام: ١٤٥، والنحل: ١١٥، حيث قدّم (به) في الآية الأولى حيث سورة البقرة وأخر في الآية الثانية حيث المائدة والأنعام والنحل، وقد وجّه العلماء الآيتين بأن الآية الأولى جاءت على الأصل؛ إذ الباء للتعدية كالهمزة والتشديد، وهي كالجزء من الفعل، فتم مراعاة ذلك في أول ورود بها في القرآن بينما اختلف الأسلوب في المواضع الأخرى حيث تأخير ما حقه التقديم مراعاة للسياق وتعويلا على المستنكر من الذبح لغير الله –تعالى –. ينظر: البرهان في توجيه متشابه القرآن للكرماني٨١/١، درة التنزيل وغرة التأويل ٣١٧/١، بصائر ذوي التمييز في تفسير الكتاب العزيز ١٥٠/١، فتح الرحمن بكشف ما يلتبس من القرآن٥٠/١، تفسير الآلوسي٦٣/٢، كشف المعاني في المتشابه من المثاني صـ ١١٠.

المطلب الرابع: في بيان مَن أرسل إليهم موسى – عليه السلام-:

قال الله –تعالى –: ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾[1]، وقال جل جلاله: ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ ﴾[2]، وقال سبحانه: ﴿ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ﴾.[3]

فهذه الآيات توضح أن موسى –عليه السلام – مبعوث ومرسل، فمن المرسل إليهم موسى –عليه السلام –، ولماذا اختلفت الأساليب في الآيات الثلاث؟

دراسة المسألة:

اختلف المفسرون في توجيه هذه الآيات الثلاث، وبيان المرسل إليهم موسى –عليه السلام –، وسر اختلاف الأساليب فيها، **على قولين**:

القول الأول: ذهب أصحابه إلى أن موسى –عليه السلام – مبعوث في الأصل ومرسل في الأساس إلى فرعون، وأن قومه تبع لفرعون، ولذلك اختلفت أساليب التعبير في القرآن الكريم؛ حيث إن سورة طه أول سورة جاء فيها الأمر بالإرسال والبعث فذكر الله –تعالى – المخصوص – وهو فرعون – ثم ثنى بقومه – حيث سورة الشعراء–، ثم ذكرهما جميعًا – حيث سورة القصص–.

قال الكرماني[4]: "قَوْله (إِلَى فِرْعَوْن)، وَفِي الشُّعَرَاء (أَن ائْتِ الْقَوْم الظَّالِمين *قوم فِرْعَوْن أَلا يَتَّقُونَ)، وَفِي الْقَصَص (فذانك برهانان من رَبك إِلَى فِرْعَوْن وملئه)؛ لِأَن طه هِيَ السَّابِقَة وَفِرْعَوْن هُوَ الأَصْل الْمَبْعُوث إِلَيْهِ وَقَومه تبع لَهُ وَهُوَ كالمذكورين مَعَه، وَفِي

(١) سورة طه الآية (٢٤).

(٢) سورة الشعراء الآية (١٠ –١١).

(٣) سورة القصص من الآية (٣٢).

(٤) أبو القاسم برهان الدين محمود بن حمزة بن نصر الكرماني، المعروف بتاج القراء، من كتبه: البرهان في توجيه متشابه القرآن، خط المصاحف وغيرهما، توفي سنة (٥٠٥هـ= ١١١٠م). طبقات المفسرين للداوودي ٣١٢/٢، الأعلام١٦٨/٧.

الشُّعَرَاء (قوم فِرْعَوْن)، أَي: قوم فِرْعَوْن وَفرْعَوْن، فَاكْتفى بِذكرِهِ فِي الْإِضَافَة عَن ذكره مُفردا، وَمثله ﴿ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ﴾[1] أَي: آل فِرْعَوْن وَفرْعَوْن، وَفِي الْقَصَص (إِلَى فِرْعَوْن وملئه) فَجمع بَين الْآيَتَيْنِ فَصَارَ كذكر الْجُمْلَة بعد التَّفْصِيل".[2]

واستدل هؤلاء على ما ذهبوا إليه بـ (القرآن الكريم) وذلك من عدة وجوه، منها:

أولًا: النصوص القرآنية التي توضح أن رسالة موسى –عليه السلام – كانت في الأصل لفرعون؛ إذ هو الذي تجبر وتكبر وادعى الألوهية، وهو السبب الرئيس في إضلال قومه، قال الله –تعالى –: ﴿ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ ﴾[3]، ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا * فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾[4]، ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ * فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ * وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ * فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ * فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ * ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ * فَحَشَرَ فَنَادَىٰ * فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[5]، ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴾[6].

ثانيًا: مراعاة الترتيب المصحفي، حيث إن أول أمر أورده الله –تعالى – في القرآن الكريم لموسى –عليه السلام – بتبليغ رسالة الله –سبحانه – المبعوث بها حيث سورة طه، وما ورد قبلها في السور السابقة عليها فكانت حكاية شأن موسى –عليه السلام – مع قومه.[7]

ثالثًا: مراعاة السياق، فالمقام في سورة الشعراء يقتضي الاقتصار على ما هو شرح دعوة قوم فرعون وإعراضهم للاتعاظ بعاقبتهم، ولذلك اكتفي بذكر فرعون مضافًا إلى قومه

---

(١) سورة البقرة من الآية (٥٠)، وسورة الأنفال من الآية (٥٤).
(٢) البرهان في توجيه متشابه القرآن صـ١٧٥، وينظر: بصائر ذوي التمييز للفيروز آبادي ٣١٤/١.
(٣) سورة القصص من الآية (٣).
(٤) سورة المزمل من الآية (١٥، ١٦).
(٥) سورة النزعات الآية (١٧: ٢٤).
(٦) سورة طه الآية (٧٩).
(٧) فتح الرحمن بكشف ما يلتبس من القرآن صـ٣٦٣.

دون ذكره منفردًا؛ ليشمله وقومه، وأما مقام ما في سورة طه فلبيان كرامة موسى عند ربه ورسالته معًا، وأما في سورة القصص فقد جُمع بينهما؛ ليوافق التعدد في قوله سبحانه: " فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ ".(١)

القول الثاني: ذهب أصحابه إلى أنّ موسى –عليه السلام – مبعوث إلى فرعون وقومه على السواء، وإنما اختلفت طرائق التعبير في القرآن الكريم لتعدد أحوال القصة، وما حذف من موضع ذُكر في آخر ودلّ عليه، وأن القرآن الكريم إنما عوّل على فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ؛ لأنهم كانوا الرؤساء والقادة، فإذا آمنوا هم اتبعهم الأتباع في ذلك.(٢)

ودليلهم على ما ذهبوا إليه، هو:

أولًا: **القياس**، حيث إن الله –تعالى – أورد في بعض الآيات بأن المأمور بتبليغ الرسالة هو موسى – عليه السلام – وحده، مع أنه أورد في بعضها الآخر بأن المأمور هو موسى وهارون –عليهما السلام –، مما يدل على أنه إذا ذكر موسى –عليه السلام – وحده فهارون تابع له، وكذلك هنا إذا ذكر فرعون فالمراد فهو وقومه.(٣)

ثانيًا: **تعدد طرائق التعبير**؛ إذ هو من باب الاختلاف في العبارة والتلوين في الأسلوب، وأنّ "قول موسى –عليه السلام – لا توقف في أنه لم ترد حكايته إلا بالمعنى لاختلاف اللسانين، وإذا تقرر كونها بالمعنى، والترادف فيما بين اللغتين في كل لفظتين يراد بهما معنى واحد غير مطرد، فلا إشكال في أن المعنى قد يتوقف حصوله على الكمال على تعبيرين أو أكثر، لا سيما مع ما في اللسان العربي من الاشتراك والعموم والخصوص والإطلاق والتقييد والحقيقة والمجاز وغير ذلك من عوارض الألفاظ، فكيف ينكر اختلاف التعبير عن المعنى الواحد بألفاظ وعبارات مختلفة...".(٤)

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير ١٠٤/١٩، بصائر ذوي التمييز ٣١٥/١، فتح الرحمن صـ٣٦٣،

(٢) تأويلات أهل السنّة ٥١/٨.

(٣) ينظر: درة التنزيل وغرة التأويل للإسكافي ٨٩٦/٢.

(٤) ملاك التأويل للغرناطي٣٣٧/٢.

الخلاصة:

مما سبق يتبيّن أن القول الأول توجيهه سديد، ورأيه رشيد، وأن القول الثاني توجيهه مرجوح وبعيد، **وذلك لعدة أسباب، منها**:

أولًا: لا خلاف في أن موسى –عليه السلام – مبعوث ومرسل إلى بني إسرائيل جميعًا، ولكن لما كان فرعون رأس الكفر، وقومه تبع له خُص بالذكر، وقُدّم في الأمر بالمرسل إليهم؛ لشناعة أمره، وخطورة شأنه.

ثانيًا: القول الذي تؤيده نصوص قرآنية مقدم على ما سواه(١)، فآيات القرآن الكريم قد أوضحت " أن فرعون فعل فعلًا فظيعًا، حيث ادعى الألوهية، وهي القمة في الاعتداء، ثم استعبد بني إسرائيل، فلا بُدَّ أن نُصفِّي الموقف أولاً مع فرعون".(٢)

والله –تعالى – أعلم بأسرار كتابه.

(١) قواعد الترجيح عند المفسرين ٣١٢/١.

(٢) خواطر حول القرآن الكريم للشيخ الشعراوي ٩٢٥٦/١٥، وينظر: تفسير الرازي٣٢/٢٢، البحر المحيط لأبي حيان٣٢٦/٧.

المبحث الثاني: مراعاة الأصل حيث الأمور الطبيعية:

مدخل: يعتبر القرآن الكريم معجزًا من حيث احتواؤه على أرقى ما عرفت البشرية ونظمت به علاقة الإنسان بخالقه سبحانه وعلاقة الإنسان بالكون الذي يعيش فيه؛ إذ من خصائص الأسلوب القرآني مخاطبة العقل والقلب معًا، والجمع بين الحق والجمال، وهو ما عبر عنه العلامة د/ دراز: "إقناع العقل" و"إمتاع العاطفة"(١)، وهو أحد وجوه إعجاز القرآن الكريم، فقد احتوى على جميع أوليات العلوم الدنيوية الكونية منها والإنسانية، واشتمل على الحقائق، وتضمن الأسرار والدقائق التي لا تزال غضةً طريّةً على وجه الدهر(٢).

فـ " للقرآن وجه اجتماعي من حيث تأثيرُه في العقل الإنساني، وهو معجزة التاريخ العربي خاصة، ثم هو بآثاره النامية معجزة أصلية في تاريخ العلم كله على بَسيط هذه الأرض ..، وما كان من الآداب الاجتماعية ناشئ من العادة التي هي بعضُ مظاهر الفكر، فهو كالعادة نفسها: يدور معها ويتغير بحسبها؛ وما كان منها راجعًا إلى طبيعة النفس التي هي مصدرُ الفكر، فهو يشبه أن يكون طبيعة للاجتماع الإنساني، ..وأنت إذا تدبرتَ هذه القوة الروحية في آداب القرآن الكريم، واعتبرتها بمأتاها في الطباع، ومَساغها إلى النفوس، واشتمالها على سنن الفطرة الإنسانية، فإنك تتبين من جملتها

---

(١) النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن العظيم صـ ١٤٨، تحقيق الشيخ/ أحمد فضلية، ط: دار القلم (١٠) ١٤٢٩هـ=٢٠٠٨م، وينظر: مناهل العرفان في علوم القرآن للشيخ/ محمد عبد العظيم الزرقاني ٢٦٢/٢.

(٢) من القائلين به: الإمام الغزالي في إحياء علوم الدين ٢٨٩/١، ط: دار المعرفة – بيروت، وابن رشد في فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال صـ ٦٦، ت: أ د/ محمد عمارة، ط: دار المعارف، (٢) بدون تاريخ، وينظر: الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ليحيى العلوي ٢٢٢/٣.

تفصيلَ تلك المعجزة الاجتماعية التي نهض بها أولئك الجفاة من العرب فنفضوا رمال الصحراء على أشعة الشمس في هذا الشرق كله..".[١]

فكل هذه المعاني التي وسعت كلّ ثقافات البشر وعلومهم، وحفظتها وصححتها ونمّتها، والتي تمت صياغتها في قوالب لغوية وأسرار بيانية مستقيمة لا تناقض فيها ولا اختلاف بينها، بل لا تنافر بين حروفها وألفاظها، ولا بين جملها وتراكيبها؛ إذ هي متماسكة تماسك أعضاء الإنسان، ومترابطة ترابط أغصان الشجر، في " كلّ جملة منه جهاز من أجهزة المعنى، وفي كلّ كلمة منه عضو من أعضائه، وفي كلّ حرف منه جزء بقدره، وفي أوضاع كلماته من جمله، وأوضاع جمله من آياته سرّ الحياة الذي ينتظم المعنى بأدائه"[٢].

وهذه الأعضاء وتلك الأغصان لا بد لها من أصل تعود إليه، وأساس تبنى عليه، مما جعل بعض العلماء يعولون على هذه الأسس، ويلفتون النظر إلى تلك الأصول، ولا سيما عند الآيات المتشابهات لما فيه من إبراز هذه الوجه من الإعجاز، واستخراج هذا اللون من أسلوب القرآن الكريم، وطرائق تعبيره.

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية صـ ٦٨، ٨١ بتصرف

(٢) النبأ العظيم صـ ١٤٦.

المطلب الأول: في لَهْوِ الحياة الدنيا ولَعِبِهَا:

قوله تعالى: ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾[1]، وقوله سبحانه: ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴾.[2]

ما علة تقديم اللعب على اللهو في الآية الأولى، وتقديم اللهو على اللعب في الآية الثانية مع اشتراكهما في أنهما خبر عن شيء واحد هو الحياة الدنيا، وأنهما اشتغال بما لا نفع فيه ولا فائدة من ورائه؟

دراسة المسألة:

كادت أن تتفق كلمة المفسرين في التوجيه بين الآيتين، بأن الآية الأولى إنما جاءت على الترتيب الوجودي وأنه تمّ فيها مراعاة الأصل، بينما الآية الثانية التي يلتمس فيها بيان النكتة من تقديم اللهو على اللعب، ومعرفة السر البلاغي فيه.

قال محمد رشيد رضا: (... تقديم اللعب على اللهو لا يحتاج إلى تعليل؛ لأنه الأصل المقدم في الوجود، وقد فصلت آية الحديد[3]متاع الحياة الدنيا بحسب ترتيبه الذي تقتضيه الفطرة البشرية، فقدم فيها اللعب لأن أول عمل للطفل يلذ له هو اللعب المقصود عنده لذاته، وذكر بعده اللهو لما فيه من القصد الذي لا يأتي من الطفل ; لأنه لا يحصل إلا لذي الفكر وبعده الزينة التي هي شأن سن الصبا، وبعده التفاخر الذي هو شأن الشبان، وبعده التكاثر في الأموال والأولاد الذي هو شأن الكهول والشيوخ، فالنكتة ينبغي أن تلتمس في آية العنكبوت...).[4]

---

(١) سورة الأنعام من الآية (٣٢).

(٢) سورة العنكبوت من الآية (٦٤).

(٣) قوله سبحانه: ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾ سورة الحديد من الآية (٢٠).

(٤) تفسير القرآن الحكيم والمسمى تفسير المنار ٣١٥/٧.

واستدلوا على ذلك بأمور منها:

أولًا: القرآن الكريم، حيث إنه ورد في القرآن الكريم ست مرات الجمع بين اللعب واللهو، أربع مرات منها قدم اللعب على اللهو – حيث سورة الأنعام فِي موضِعين[(١)] وَكَذَلِكَ فِي سورتي الْقِتَال وَالْحَدِيد[(٢)]، وَقدم اللَّهْو على اللّعب فِي الْأَعْرَاف وَالْعَنْكَبُوت[(٣)]– مما يدل على أن أكثر القرآن تم تقديم اللعب فيه على اللهو؛ "لِأَن اللّعب زَمَانه الصِّبَا وَاللَّهْو زَمَانه الشَّبَاب وزمان الصِّبَا مقدم على زمَان الشَّبَاب ٠٠٠، وَقَرِيب من هَذَا فِي تَقْدِيم لفظ اللّعب على اللَّهْو قَوْله تَعَالَى ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ * لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ ﴾[(٤)]".[(٥)]

ثانيًا: الأصل اللغوي، فـ (اللعب: عمل أو قول في خفة وسرعة وطيش ليست له غاية مفيدة بل غايته إراحة البال وتقصير الوقت واستجلاب العقول في حالة ضعفها كعقل الصغير وعقل المتعب، وأكثره أعمال الصبيان. قالوا ولذلك فهو مشتق من اللعاب، وهو ريق الصبي السائل، وضد اللعب الجد.

واللهو: ما يشتغل به الإنسان مما ترتاح إليه نفسه ولا يتعب في الاشتغال به عقله، فلا يطلق إلا على ما فيه استمتاع ولذة وملائمة للشهوة، وبين اللهو واللعب العموم والخصوص الوجهي، فهما يجتمعان في العمل الذي فيه ملاءمة ويقارنه شيء من الخفة

---

(١) سورة الأنعام الآيتان (٣٢، ٧٠).

(٢) سورة محمد من الآية (٣٦)، سورة الحديد من الآية (٢٠).

(٣) سورة الأعراف من الآية (٥١)، سورة العنكبوت من الآية (٦٤).

(٤) سورة الأنبياء الآية (١٦، ١٧).

(٥) البرهان في توجيه متشابه القرآن صـ١٠٧.

والطيش كالطرب واللهو بالنساء. وينفرد اللعب في لعب الصبيان، وينفرد اللهو في نحو الميسر والصيد٠٠).[١]

ثالثًا: **مراعاة الطبيعة البشرية**، "فوجه تقديم اللعب في الأنعام أنه المتقدم في الوجود الدنياوي على اللهو، ولأن أول ابتداء تعقل الإنسان وميزه حاله حال اللعب وهو المطابق لسن الابتداء، فإذا استمر ألهى عن التدبر والاعتبار وشغل تماديه عن التفكر فيما به النجاة والفوز وقد ينضاف إلى اللعب شاغل غيره أو يعاقبه فيحصل بالمجموع الغفلة عن النظر في الآيات فيعقب الهلاك، ٠٠٠ فورد الاخبار على حسب جرى الأعمار وأنهم اعتمدوا البقاء مع مقتضى الطبع الإنساني؛ إذ لم يصغ المكلف إلى داع ولا تكلف الخروج عن مقتضى هواه ولا جنح إلى مفارقة مألوف الطباع٠٠٠".[٢]

الخلاصة:

مما سبق يتضح أن تعبير المفسرين في توجيه تقديم اللعب على اللهو بالأصل يريدون بذلك الأصل القرآني حيث أكثر ورود اللعب واللهو يكون بتقديم اللعب على اللهو، وهذا الأصل القرآني وافق الأصل اللغوي والأصل الفطري للإنساني، وأنهم أخذوا يلتمسون تفسيرًا لتقديم اللهو على اللعب، فقيل: " وقدّم اللَّهو في الأَعراف؛ لأَنَّ ذلك في القيامة، فذكر على ترتيب ما انقضى، وبدأ بما به الإنسان انتهى من الحالتين، وأَما العنكبوت فالمراد بذكرها زمانُ الدُّنيا، وأَنَّه سريع الانقضاءِ، قليل البقاءِ، وإِنَّ الدَّار الآخرة لهى الحيوان أَي الحياة التي لا بداية لها، ولا نهاية لها، فبدأَ بذكر اللهو؛ لأَنَّه في زمان الشَّباب، وهو أَكثر من زمان اللعب، وهو زمان الصِّبا"[٣]، وقيل: بأنها " وردت في سياق إقامة الحجج العقلية على المشركين، فذكر فيها اللهو قبل اللعب على طريقة التدلي المؤذن بالانتقال

---

(١) التحرير والتنوير ١٩٣/٧، وينظر: مفردات ألفاظ القرآن صـ ٥١٧، ٥٧٦، مختار الصحاح صـ ٢٨٢، الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري صـ ٢٥٤.

(٢) ملاك التأويل للغرناطي١٥٦/١.

(٣) بصائر ذوي التمييز ١٩٣/١.

من الشيء إلى ما هو دونه في نظر العقلاء، فإن اللعب من العاقل الذي لا يليق به العبث أقبح من اللهو؛ إذ اللهو تقصد به فائدة ولو سلبية، واللعب هو العبث الذي لا تقصد به فائدة ألبتة، فهو شأن الأطفال لا العقلاء العالمين بالمصالح، الذين يقصدون بكل عمل من أعمالهم، إما دفع بعض المضار، وإما تحصيل بعض المنافع.."[1].

وكل ذلك جائز وصحيح، وأسلوبه بلاغي وفصيح، يدل على إعجاز القرآن الكريم، وبلوغه الذروة في البلاغة والفصاحة، وأنه جمع بين أفصح الألفاظ ودقتها وأصح المعاني وأضبطها.

والله – تعالى– أعلم بأسرار كتابه.

(١) تفسير المنار ٣١٥/٧، وينظر: ملاك التأويل للغرناطي ١٥٦/١.

المطلب الثاني: في الضر والنفع:

قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾(١)، وقوله سبحانه: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾.(٢)

الآيتان في بيان عجز الإنسان – ولو كان نبيًا مرسلًا– وأنه لا يملك دفع شيء مما قدره الله تعالى عليه إلا بمشيئة الله سبحانه، فما علة تقديم النفع على الضر في الآية الأولى– حيث سورة الأعراف– وتأخيره عن الضر في الآية الثانية – حيث سورة يونس، خاصة؟

دراسة المسألة:

لقد تعددت توجيهات المفسرين في تقديم الضر على النفع وتأخيره عنه على ثلاثة أقوال:

القول الأول: ذهب أصحابه إلى أن الضر إنما تقدم على النفع؛ لأنه موافق للطبيعة الإنسانية التي تقتضي وجوب دفع الضر وأنه مقدم على جلب النفع، ولا سيما في أمور العبادة؛ إذ العابد يعبد معبوده خوفًا من عقابه أولًا ثم طمعًا في ثوابه ثانيًا، فكان الضر هو الأصل، ولذلك قدّم في كثير من الآيات، وإنما أُخر في بعض الآيات لعلة اقتضتها سياق الآيات.

قال الكرماني: (قَوْله: " قل لَا أملك لنَفْسي نفعا وَلَا ضرا إِلَّا مَا شَاءَ الله" فِي هَذِه السُّورَة، وَفِي يُونُس: " قل لَا أملك لنَفْسي ضرا وَلَا نفعا إِلَّا مَا شَاءَ الله"؛ لِأَن أَكثر مَا جَاءَ فِي الْقُرْآن من لَفْظِي الضّر والنفع مَعًا جَاءَ بِتَقْدِيم لفظ الضّر على النَّفْع؛ لِأَن العابد يعبد معبوده خوفًا من عِقَابه أَولًا ثمَّ طَمَعا فِي ثَوَابه ثَانِيًا يُقوّيه قَوْله: ﴿يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا

(١) سورة الأعراف من الآية (١٨٨).
(٢) سورة يونس من الآية (٤٩).

وَطَمَعًا ﴾[1]، وَحَيْثُ تقدم النَّفْع على الضّر تقدم لسابقة لفظ تضمن نفعًا، ... أما فِي هَذِه السُّورَة فقد تقدمه ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ﴾[2]، فَقدم الْهِدَايَة على الضَّلَالَة وَبعد ذَلِك ﴿ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ﴾[3]، فَقدم الْخَيْر على السوء فَلذَلِك قدم النَّفْع على الضّر، .... وَفِي يُونُس قدم الضّر على الأَصْل ولموافقة مَا قبلهَا ﴿ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾[4]، وفيهَا ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ ﴾[5]، فَيكون فِي الْآيَة ثَلَاث مَرَّات...)[6].

واستدل هؤلاء على ما ذهبوا إليه بما يلي:

أولًا: النصوص القرآنية، فلقد كثر واطرد في القرآن الكريم تقديم لفظ الضر أو ما في معناه من السوء أو الشر على لفظ النفع أو ما في معناه من الخير[7]، فـ (أكثر ما جاء في القرآن، من لفظيْ: الضُرّ، والنفع معاً، جاء بتقديم الضُرّ على النفع، ولو بغير لفظهما).[8]

---

(١) سورة السجدة من الآية (١٦).

(٢) سورة الأعراف من الآية (١٧٨).

(٣) سورة الأعراف من الآية (١٨٨).

(٤) سورة يونس من الآية (١٨).

(٥) سورة يونس من الآية (١٢).

(٦) البرهان في توجيه متشابه القرآن صـ١٣١، وينظر: بصائر ذوي التمييز ٢٢٠/١، فتح الرحمن صـ٢١٣.

(٧) من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ ﴾ سورة الأنعام من الآية (١٧)، وقوله: ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ﴾ سورة الأحزاب من الآية (١٧)، وغير ذلك من الآيات، هذا بالإضافة إلى الآيات الثانية التي تحدثت عن لفظ الضر وتقديمه، وهي : سورة البقرة الآية (١٠٢)، والمائدة (٧٦)، ويونس (١٨)، (٤٩)، والحج (١٢)، والفرقان (٣)، والفتح (١١)، والجن (٢١).

(٨) فتح الرحمن صـ ٢١٣.

ثانيًا: مقاصد الشريعة الإسلامية وسماحتها، ومن ذلك أنه إذا اجتمع أمران أحدهما فيه مفسدة والآخر فيه مصلحة وجب دفع المفسدة، فـ (٠٠ " دَرْءُ الْمَفَاسِدِ أَوْلَى مِنْ جَلْبِ الْمَصَالِحِ "، فَإِذَا تَعَارَضَ مَفْسَدَةٌ وَمَصْلَحَةٌ ; قُدِّمَ دَفْعُ الْمَفْسَدَةِ غَالِبًا؛ لِأَنَّ اعْتِنَاءَ الشَّارِعِ بِالْمَنْهِيَّاتِ أَشَدُّ مِنْ اعْتِنَائِهِ بِالْمَأْمُورَاتِ، وَلِذَلِكَ قَالَ صلى الله عليه وسلم: «إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ»(١)، وَمِنْ ثَمَّ سُومِحَ فِي تَرْكِ بَعْض الْوَاجِبَات بِأَدْنَى مَشَقَّةٍ كَالْقِيَامِ فِي الصَّلَاةِ، وَالْفِطْرِ وَالطَّهَارَةِ، وَلَمْ يُسَامَحْ فِي الْإِقْدَامِ عَلَى الْمَنْهِيَّاتِ، وَخُصُوصًا الْكَبَائِرَ).(٢)

ثالثًا: **موافقة الطبيعة الإنسانية، ومواكبة الغزيرة البشرية**، فإنما " قدم الضر على النفع؛ لأن النفوس أشد تطلعًا إلى دفعه من تطلعها إلى جلب النفع، ولأن التحرز عنه أهمُ من تحرّي النفع ولأن أدنى درجات التأثير دفع الشر ثم جلب الخير".(٣)

القول الثاني: ذهب أصحابه إلى أنه ليس هناك أصل ولا فرع، وأن تقديم الضر على النفع في بعض الآيات وتأخيره عنه في بعضها الآخر إنما هو مراعاة للسياق، وموافقة للمقام، فحيث اقتضى المقام الضر وجب تقديمه، وحيث وجب تأخيره وجب تأخيره.(٤)

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب: الاعتصام بالكتاب والسنة، ب: الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ٤٩/٩ ح (٧٢٨٨)، ومسلم في صحيحه: ك: الفضائل، ب: توقير النبي صلى الله عليه وسلم ١٨٤٠/٤ ح (١٣٣٧)، عن أبي هريرة.

(٢) الأشباه والنظائر للسيوطي صـ ٨٧، وينظر: القواعد الفقهية وتطبيقاتها على المذاهب الأربعة د/ محمد مصطفى الزحيلي ٢٣٨/١.

(٣) التحرير والتنوير ٢٨٩/٦، تفسير أبي السعود ٦٨/٣، تفسير الآلوسي ٢٨٥/٤.

(٤) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم١٥١/٤.

ودليلهم: **النصوص القرآنية**؛ إذ إن المتأمل فيها يجد أنها تارة تقدم الضر على النفع حيث الاسمية فيهما والعكس، وتارة تقدم النفع على الضر حيث الفعلية فيهما والعكس، وبتأمل المقام والسياق يظهر السر في التقديم أو التأخير.(١)

القول الثالث: ذهب أصحابه إلى أن الأصل تقديم النفع؛ لأنه الأهم إلى النفس والأحب إلى الإنسان، وبخاصة إذا لم يكن في السياق ما يوجب تقديمه.

قال البقاعي: (وقدم النفع لأنه أهم إلى النفس، وليس في السياق ما يوجب تأخيره بخلاف ما في سورة يونس عليه السلام، فقال آمراً بإظهار ذل العبودية٠٠٠)(٢)، وقد وافقه على ذلك الطاهر ابن عاشور حيث بيّن أن النفع أحب إلى الإنسان ولذا قدم على الضر.(٣)

الخلاصة:

مما سبق يمكننا أن نستخلص أن ما ذهب إليه القول الأول أقرب إلى الصواب، وأولى بالتوجيه؛ لأنهم لم يقتصروا على لفظ الضر والنفع بل ما في معناهما، كما أنهم لم يرفضوا ما قاله أصحاب القولين الأخرين غاية الأمر أن أصحاب المذهب الأول وجدوا أن القرآن الكريم عند حديثه للضر والنفع كثيرًا ما يقدم الضر على النفع فجعلوه أصلا، بخلاف من ذهب إلى أن النفع إنما قُدّم لأنه الأحب إلى النفس، قد عارض نفسه، فتراه يقول: (وقدم الضر على النفع؛ لأن النفوس أشد تطلعًا إلى

---

(١) كشف المعاني في المتشابه من المثاني صـ١٨٨، وينظر: البحر المديد لابن عجيبة ٤٧٧/٢، فتح البيان للقنوجي ٧٣/٦، زهرة التفاسير لأبي زهرة ٣٥٨٥/٧، التفسير الوسيط د/ طنطاوي ٨١/٧.

(٢) نظم الدرر ١٨٧/٨.

(٣) التحرير والتنوير ٢٠٧/٩.

دفعه من تطلعها من جلب النفع)[١]، وأن من ذهب إلى أن التقديم والتأخير إنما هو حسب السياق وما اقتضاه المقام فذلك ما قال به أيضا أصحاب المذهب الأول.

وقد أفاد هذه المعاني وتلك الدقائق، بل إنه ذكر إنها من وجوه إعجاز القرآن الفيروزآبادي، حيث قال: (قوله: " قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاءَ الله" هنا، وفى يونس: " قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً إِلاَّ مَا شَاءَ الله"؛ لأَنَّ أكثر ما جاءَ في القرآن من لفظ الضرّ والنفع معاً جاء بتقديم لفظ الضّرّ؛ لأَنَّ العابد يعبد معبوده خوفاً من عقابه أَوَّلاً، ثمَّ طمعاً في ثوابه ثانياً، يقوّيه قوله: " يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً"[٢]، وحيث تقدم النفع تقدّم لسابقة لفظ تضمّن نفعاً، وذلك في ثمانية مواضع: ثلاثة منها بلفظ الاسم، وهى هاهنا والرّعد[٣] وسبأ[٤]، وخمسة بلفظ الفعل وهى في الأَنعام " مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا"[٥] وفى آخر يونس "مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ"[٦]، وفى الأَنبياءِ " مَا لاَ يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلاَ يَضُرُّكُمْ"[٧]، وفى الفرقان "مَا لاَ يَنفَعُهُمْ وَلاَ يَضُرُّهُمْ"[٨]، وفى الشعراءِ " أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ"[٩]، أَمّا في هذه السورة فقد تقدّمه "مَن يَهْدِ الله فَهُوَ المهتدي وَمَن يُضْلِلْ"[١٠] فقدّم الهداية على الضَّلالة،

---

(١) التحرير والتنوير ٦/٢٨٩.
(٢) سورة السجدة من الآية (١٦).
(٣) الآية (١٦).
(٤) الآية (٤٢).
(٥) سورة الأنعام من الآية (٧١).
(٦) سورة يونس من الآية (١٠٦).
(٧) سورة الأنبياء من الآية (٦٦).
(٨) سورة الفرقان من الآية (٥٥).
(٩) سورة الشعراء من الآية (٧٣).
(١٠) سورة الأعراف من الآية (١٧٨).

وبعد ذلك "لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخير وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ"(١) فقدّم الخير على السّوءِ، فكذلك قدّم النَّفع على الضرّ، وفى الرّعد "طَوْعًا وَكَرْهًا"(٢)، فقدّم الطَّوع وفى سبأ " يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَآءُ من عباده وَيَقْدِرُ له"(٣)فقدّم البسط، وفى يونس قدّم الضّرّ على الأَصلِ ولموافقته ما قبلها " لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ"(٤)، وفيها " وَإِذَا مَسَّ الإنسان الضر"(٥)فتكرّر في الآية ثلاث مرّات٠٠٠تأَمّل؛ فإنه برهان ساطع للقرآن).(٦)

والله – تعالى– أعلى بأسرار كتابه.

(١) سورة الأعراف من الآية (١٨٨).
(٢) سورة الرعد من الآية (١٥).
(٣) سورة سبأ من الآية (٣٩).
(٤) سورة يونس من الآية (١٨).
(٥) سورة يونس من الآية (١٢).
(٦) بصائر ذوي التمييز ٢٢٠/١.

المطلب الثالث: في تأكيد المطعوم دون المشروب

قال تعالى – في المطعوم –: ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾[1]، وقوله سبحانه – في المشروب –: ﴿ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾.[2]

حيث جاء جواب شرط "لو " في الآية الأولى مذكور فيه اللام بينما جاء جواب شرط "لو " في الآية الثانية محذوف اللام، فما علة ذكرها في الآية الأولى وحذفها من الآية الثانية؟

دراسة المسألة:

اختلف العلماء في توجيه هاتين الآيتين على قولين:

القول الأول: ذهب أصحابه إلى أن الآية الأولى جاءت على الأصل، وهو هنا متعدد حيث الترتيب الوجودي، فإن الآية الأولى في المطعوم والمأكول وهو مقدم على المشروب، كما أن المراد بالأصل حيث التوجيه الإعرابي، فإن الأكثر في جواب "لو " المثبت دخول اللام.

قال الشيخ زكريا الأنصاري: " قوله تعالى: (لَو نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ) ذَكَرَ في جواب " لو " في الزرع اللّاَم عملاَ بالأصل، وحذفها منه في الماء اختصارًا؛ لدلالة الأول عليه، أو أن أصل هذه اللام للتأكيد، وهو أنسبُ بالمطعوم؛ لأنه مقدَّمٌ وجودًا ورُتبةً على المشروب ".[3]

---

(١) سورة الواقعة من الآية (٦٥).

(٢) سورة الواقعة من الآية (٧٠).

(٣) فتح الرحمن بكشف ما يلتبس من القرآن صـ ٥٤٩.

واستدل هؤلاء على ما ذهبوا إليه بالآتي:

أولًا: القرآن الكريم، حيث إن القرآن الكريم كثيرًا ما يقدم المأكول قبل المشروب، من ذلك قوله تعالى: ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ ﴾(١)، وقوله: ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ﴾(٢)، وقوله: ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ﴾(٣)، وقوله: ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا ﴾.(٤)

كما أن سياق الآيات يدل على تقدم المطعوم على المشروب، فلقد ذكر الله –تعالى – ما به يكون المأكول عن طريق الحرث والزرع، فقال: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ * لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾(٥) ثم ذكر بعدها المشروب، فقال: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ * ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾(٦)، مما يدل على أن المأكول أهم وأعظم من المشروب؛ إذ هو أصل في إقامة الجسم والمشروب تبع له.(٧)

ثانيًا: القواعد العربية، والتي تبين أن جواب "لو " إذا كان ماضيًا مثبتًا فإن الغالب فيه دخول اللام عليه(٨)؛ إذ قد ورد في أكثر من خمسة عشر موضعًا في القرآن الكريم اقتران جواب "لو " باللام، من ذلك قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً ﴾(٩)، وقوله: ﴿ لَوْ

---

(١) سورة البقرة من الآية (٦٠).

(٢) سورة البقرة من الآية (١٨٧).

(٣) سورة الأعراف من الآية (٣١).

(٤) سورة الطور من الآية (١٩)، سورة الحاقة من الآية (٢٤)، سورة المرسلات من الآية (٤٣).

(٥) سورة الواقعة الآية (٦٣– ٦٥).

(٦) سورة الواقعة الآية (٦٨– ٧٠).

(٧) روح المعاني ٤٩٠/١٣، وينظر: نظم الدرر للبقاعي ٢٢٤/١٩، روح البيان لإسماعيل حقى ٣٣٤/٩.

(٨) ينظر: مغني اللبيب لابن هشام ٣٥٨/١، الإتقان في علوم القرآن، صـ ٤٩٤.

(٩) سورة فصلت من الآية (١٤).

هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ﴾[1]، ولم يَأْتِ مجرداً من اللام إلا نادرًا كما في قوله تعالى: (أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَاهُمْ)[2]، وفي قوله: (لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً)[3].[4]

ثالثًا: **القيم الجمالية**، حيث إن تأكيد الكلام ضربٌ من المبالغة، وغايته التعبير "عن أمر يعزّ وجوده، أو فعل يعظم إحداثه ووقوعه، وإنما أدخلت (اللام) في آية المطعوم دون آية المشروب؛ لأن جعل الماء العذب ملحًا أسهل إمكانًا، والموجود من الماء الملح أكثر من الموجود من الماء العذب، وكثيرًا ما إذا جرت المياه العذبة على الأراضي المتغيرة التربة أحالتها إلى الملوحة والمرارة، فلم يحتج في جعل الماء العذب ملحاً إلى زيادة تأكيد، فلذلك لم تدخل عليه (لام التأكيد) المفيدة زيادة للتحقيق، وأما المطعوم فإن جعله حطامًا لما كان خارجًا عن المعتاد أو هو غير مألوف، وإذا وقع فلا يكون إلّا عن سخط شديد وغضب زائد، لذلك قرن بلام التأكيد زيادة في تحقيق أمره وتقرير إيجاده وكونه، وهكذا يفعل بكل أمر فيه خصوصية".[5]

القول الثاني: ذهب أصحابه إلى أن كلًّا من الإثبات والحذف جائز؛ إذ قد نطق بهما القرآن الكريم، فهما صحيحان فصيحان، ولا يمكن أن يجعل أحدهما أصلًا للآخر.[6]

---

(١) سورة إبراهيم من الآية (٢١).

(٢) سورة الأعراف من الآية (١٠٠).

(٣) سورة الواقعة من الآية (٧٠).

(٤) ينظر: الدر المصون ٤٧٥/٥.

(٥) الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور لابن الأثير ٢٢٥/١، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ٥٢/٢.

(٦) البحر المحيط في التفسير ٨٩/١٠.

ودليلهم على ما ذهبوا إليه: أولًا: القرآن الكريم، حيث بيّن "أن الماء سبب حياة كلّ شيء، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾[1]، وأنه سبب نبات الزروع الأثمار وسائر المأكولات، وعن هذا قدم ما هو من المشروب على ما هو من المأكول، قال تعالى في صدر هذه السورة: ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ ﴾[2]، ثم قال تعالى: ﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾[3]".[4]

ثانيًا: القواعد العربية، حيث إن "لو " يدخل في جوابها اللام، "ودخولها لتأكيد ارتباط إحدى الجملتين بالأخرى، ويجوز حذفها"[5]، مما يدل على جواز الأمرين.

الخلاصة:

مما سبق يتضح أن القول الأول أولى بالاعتبار، وأقرب إلى الصواب، فتوجيهه سديد، وذلك لعدة أسباب، منها:

أولًا: أنه لم يمنع عدم دخول جواب "لو " من اللام، بل قال بما ذهب إليه القول الثاني من أن اللام كما تدخل على جواب "لو " فإنها يجوز حذفها، إلا أنه ذهب إلى أن الحذف قليل، والقاعدة تقول: "حمل معاني كلام الله –تعالى– على الغالب من أسلوب القرآن ومعهود استعماله أولى من الخروج به عن ذلك ".[6]

---

(١) سورة الأنبياء من الآية (٣٠).

(٢) سورة الواقعة الآية (١٧، ١٨).

(٣) سورة الواقعة الآية (٢١).

(٤) حاشية القونوي على تفسير البيضاوي٤١٧/١٨.

(٥) شرح المفصل لابن يعيش٢٢/٩.

(٦) قواعد الترجيح عند المفسرين ١٧٢/١.

ثانيًا: أن مقصود السورة الدلالة على تمام القدرة الإلهية وتحققها بالفعل، ولذلك فإن في "جعل الزرع حطامًا إذهاب له بالكلية صورة ومنفعة، وجعل الماء أجاجا لم يذهب به صورة، وربما انتفع في غير الشرب "[1]، فالتهديد به والوعيد بفقده أصعب وأشد، ولذلك تم تأكيده؛ ليناسب مقام التأكيد.

ثالثًا: أن الأصل الإثبات، والحذف لقرينة، وهي هنا قرينة لفظية وحالية، وذلك" اعتمادًا على علم السامع بمكانها، فإن السامع لما علم أنها جعلت علامة لكون الجملة الثانية مرتبطة بالأولى وأنها لا بد منها في جواب "لو " مطلقًا، واشتهر بين الناس موضعها ومكانها جاز حذفها؛ لأن الشيء إذا عُلم موضعه واشتهر أنه لا بد منه لا يبالى بإسقاطه فيحذف للاختصار اعتمادًا على وجود القرينة الحالية لا سيّما وقد تحققت هنا قرينة لفظية، وهو سبق ذكرها في قوله: ولو نشاء لجعلناه حطامًا"، كما أن المطعوم مقصود لذاته، والمشروب إنما احتياج إليه تبعًا للمطعوم، فكان الأول أهم، وفقده أصعب وأشد، فكان هذا مرجحًا لاختصاصه بمزيد التأكيد".[2]

والله –تعالى – أعلم بأسرار كتابه.

(١) كشف المعاني لابن جماعة صـ٣٥٠.

(٢) حاشية شيخ زاده على تفسير البيضاوي ٣٤٩/٤، وينظر: تفسير الآلوسي ٤٩٠/١٣.

المبحث الثالث: مراعاة الأصل حيث الرسم القرآني (العثماني):

مدخل: لقد تولى الله – سبحانه وتعالى – حفظ القرآن الكريم، فقال سبحانه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[1]، ولم يقتصر الحفظ على جانب واحد من جوانبه، بل تعددت هذه الجوانب، بل وفي كل جانب –أيضًا – جوانب مختلفة، وأنه في كل واحد منها معجز، فمن حفظٍ في الصدور إلى حفظ في السطور، وفي النوع الأخير من الحفظ كان حفظ خطه ورسمه، فقد أخذت ألفاظه وكلماته في كتابتها نمطًا خاصًّا تغاير كافة الكتابات الإملائية العربية الأخرى حتى صار هذا النوع فنًّا قائمًا بذاته، وبابًا من العلم فريدًا من نوعه، قد ألفت فيه المؤلفات، ودوّنت فيها المصنفات؛ للوقوف على مراميه، ومعرفة شيء من لطائفه وأسراره، وقد أطلقوا عليه: الرسم المصحفي أو الرسم العثماني، وهو عبارة عن "طريقة رسم الكلمات في المصحف من ناحية عدد حروف الكلمة ونوعها، لا من حيث نوع الخط وجماليته، ويستند رسم الكلمات في المصحف إلى طريقة رسمها في المصاحف التي نسخت في خلافة عثمان – رضي الله عنه– والتي عرفت في المصادر الإسلامية باسم المصاحف العثمانية، نسبة إلى سيدنا عثمان؛ لكونه هو الذي أمر بنسخها وإرسالها إلى البلدان، كما صار رسم الكلمات فيها يعرف بالرسم العثماني ".[2]

وهذا النوع من العلم له ارتباط وثيق بأنواع أخرى من علوم القرآن الكريم، فإنه يرتبط "بموضوع (جمع القرآن) الجمع الكتابي في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ثم في عهد أبي بكر رضي الله عنه، ثم في عهد عثمان رضي الله عنه، وقد تبِع (رسم المصحف) موضوع آخر، وهو (ضبط المصحف)، وبينهما علاقة قوية جدّاً؛ لأن (علم الضبط) جاء لضبط الرسم لموافقة القراءة، ولرسم المصحف علاقة بالقراءات؛ إذ الأصل دلالة المرسوم

---

(١) سورة الحجر من الآية (٩).

(٢) محاضرات في علوم القرآن لـ غانم قدوري، صـ ٨٣، وينظر: تاريخ القرآن الكريم للشيخ محمد طاهر الخطاط صـ ٩٤ وما بعدها، رسم المصحف العثماني وأوهام المستشرقين في قراءات القرآن الكريم د/ عبد الفتاح شلبي صـ ٥.

على المسموع، فجاء (رسم المصحف) للدلالة على المقروء، كما هو الأصل في الرسم عمومًا ".[١]

وعلى الرغم من اتفاق العلماء بأهمية هذا النوع من العلم، وعظم منزلته إلا أنهم اختلفوا: هل الرسم القرآني (المصحفي) هذا توقيفي– وحي – يجب التزامه، ولا يجوز مخالفته أم توقيفي – اجتهادي من فعل الصحابة –رضوان الله عليهم– فيجوز مخالفته؟ وأن الراجح من هذه الأقوال، والذي هو قول الجمهور: أنه توقيفي لا يجوز مخالفته؛ إذ إن النبي صلى الله عليه وسلم عندما كان يملي القرآن الكريم على كتبة الوحي يرشدهم إلى طريقة كتابته، ومن المعلوم أن القرآن الكريم كُتب كله بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم، كما أن الصحابة أجمعوا على مصحف سيدنا عثمان، وما كان إجماعهم إلا على القرآن كله بآياته وسوره ورسمه وخطه.[٢]

كما أن للرسم العثماني فوائد تدعو إلى وجب اتباعه، فمن " فوائد اتباع رسم المصحف العثماني: اتصال السند بالقرآن الكريم، ٠٠٠وأن رسم القرآن سر من أسرار الله المشاهدة، وكمال الرفعة، وأنه صادر من النبي صلى الله عليه وسلم وهو الذي أمر الكتاب من الصحابة أن يكتبوه على هذه الهيئة، فما نقصوا ولا زادوا على ما سمعوه من النبي صلى الله عليه وسلم ".[٣]

ومما يتصل بالرسم القرآني ما يسمى بالفواصل القرآنية، ورؤوس الآي؛ إذ ذلك من المنهج الفريد التي تميز به القرآن الكريم.

ولهذا جعل علماء التفسير الرسم المصحفي (العثماني) أصل من الأصول التي يعتمد عليه وبخاصة عند توجيه المتشابه، وأنه يجب مراعاة ذلك الأصل، وذلك ظاهر بارز في توجيههم للنصوص الموهم ظاهرها التشابه والتعارض.

---

(١) المحرر في علوم القرآن، د/ مساعد الطيار، صـ ٢٢٢.

(٢) ينظر: مناهل العرفان ٣١٧/١ وما بعدها، المدخل لدراسة القرآن الكريم، د/ محمد أبو شبهة صـ ٣٤٣، اللآلئ الحسان في علوم القرآن د/ موسى شاهين لاشين صـ ٨٦.

(٣) المدخل لدراسة القرآن الكريم صـ٣٤٨، ٣٥٦. بتصرف

المطلب الأول: ياء الإضافة بين الإثبات والحذف:

قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾[1]، وقوله سبحانه: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾[2].

لماذا أثبتت الياء في الفعل (واخشوني) حيث سورة البقرة؛ إذ هي ثابتة في مرسوم المصحف وفي التلاوة، بينما حذفت من الآية الثانية حيث سورة المائدة؛ إذ حذفت لفظًا وخطًّا مع أن الفعل واحد في كليهما؟

دراسة المسألة:

اختلف العلماء في توجيه هاتين الآيتين حيث الإثبات في أحدهما والحذف في الأخرى **على قولين:**

القول الأول: ذهب أصحابه إلى أن هذه الياء إنما هي ياء المتكلم الداخلة على الفعل وأن الأصل فيها إثباتها، فقد ثبتت في الرسم في أكثر المصاحف مما يدل أن ذلك هو الأصل فيها، وإنما حذفت حيث مراعاة الرسم المصحفي.

قال د/ المطعني: (.. في آية البقرة ثبت " الياء" في الفعل " واخشوني" وفي آية المائدة حذفه، وهنا سؤال لحوح: لماذا أثبت الياء في الأولى وحذف في الثانية؟

والجواب: إن الياء في آية البقرة جيء به على الأصل (الإثبات) لا الحذف، أما في آية المائدة فقد كان الحذف رمزًا على معنى يدل عليه، هذا المعنى هو أن المنهي عن خشيته طائفة خاصة، هم الذين ظلموا المؤمنين من الناس لا كل الناس؛ لأن الضمير في " فلا تخشوهم" عائد على أقرب مذكور له، وهو هنا ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ومراعاة لهذا المعنى ذهب بعض العلماء إلى أن ثبوت الياء في آية البقرة ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ رمز إلى معنى مقابل للمعنى الذي حذف الياء من أجل الدلالة عليه في آية المائدة، والمقام

---

(١) سورة البقرة من الآية (١٥٠).

(٢) سورة المائدة من الآية (٣)، وقوله سبحانه: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ المائدة من الآية (٤٤).

ينصر هذا لأن ما في آية البقرة هو ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أما في سورة المائدة فهو " الذين كفروا" وهو أعم من " الذين ظلموا"، وعلى هذا: فإن حذف الياء في آية المائدة رمز به إلى العموم وإثبات الياء في آية البقرة رمز به إلى الخصوص٠٠).[١]

ودليلهم على ذلك: هو أن هذه الياء جاءت لإفادة معنى، هو إضافة المتكلم الفعل لنفسه أمرًا كان أو نهيًا إيجابًا أو سلبا، ولذلك وردت في الرسم في كل المصاحف المبعوث بها إلى الأمصار في أربعين موضعًا في القرآن الكريم[٢] أولهم هذا الموضع الوارد في سورة البقرة، مما يدل على أن إثباتها هو الأصل، وحذفها لعلة كما في الرسم المصحفي أو لضرورة كما في الشعر العربي[٣]، كذلك روعي فيها السياق.[٤]

القول الثاني: ذهب أصحابه إلى أن كلّ واحد منهما أصل، وأنهما سواء كتبت الياء أو لم تكتب فإن الأمر فيهما جائز؛ لأنها ثبتت وكتبت لأجل الأصل والوصل، وأنها في حالة عدم كتابتها فإن الكسرة دالة عليها فكانت في حكم الموجود.[٥]

ودليلهم على ذلك: **أولًا**: **القرآن الكريم**، فقد ورد في القرآن الكريم –ما يقارب– مائة وستة وعشرون موضعًا حذفت من الياء واكتفي فيها بالكسرة[٦]، من ذلك قوله تعالى: «رَبِّي أَكْرَمَنِ– وأَهانَنِ»[٧]، وقوله: «أَتُمِدُّونَنِ بِمالٍ»[٨]، وهكذا.

---

(١) لطائف وأسرار خصوصيات الرسم العثماني للمصحف الشريف د/ عبد العظيم المطعني ٣٣/٢، هدية مجلة الأزهر جمادى الأولى ١٤٤٠هـ= يناير ٢٠١٩م.

(٢) المقنع في رسم مصاحف الأمصار للداني٥١/١، الإقناع في القراءات السبع لابن الباذش ٢٧٤/١.

(٣) التفسير البسيط للواحدي ٤٧٤/٩.

(٤) البرهان في توجيه متشابه القرآن ١٠٠/١، وينظر: بصائر ذوي التمييز للفيروز آبادي ١٨٠/١، فتح الرحمن لزكريا الأنصاري ١٢٩/١.

(٥) معاني القرآن ٩٠/١، وينظر: خزانة الأدب للبغدادي ٢٣٠/٥.

(٦) المقنع في رسم مصاحف الأمصار ٣٨/١ وما بعدها.

(٧) سورة الفجر من آية (١٥، ١٦).

(٨) سورة النمل من الآية (٣٧).

ثانيًا: وروده في الشعر العربي: كقول عنترة:

إن العـدو لهم إليـك وسـيلـة إن يأخذوك تكحلي وتخضـب.[1]

الخلاصة: مما سبق يمكننا أن نستخلص بأن القول الثاني أقرب إلى الصواب وأولى بالتوجيه، وذلك لما يأتي:

أولًا: إن القرآن الكريم نزل بلسان العرب، وإحدى اللغات الواردة عن العرب تحذف ياء المتكلم وتكون الكسرة دليلا عليها، مما يجعل الحذف أصلًا كالإثبات.

ثانيًا: إن الرسم المصحفي سنة يجب اتباعها[2]، ولذلك اختلف القراء في اثبات الياء وحدفها من قوله تعالى: (" وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا " يقرأ بإثبات الياء، وحذفها، فالحجة لمن أثبت: أنه أتى به على الأصل، والحجة لمن حذف: أنه اتبع الخط، وهذا في كتاب الله عز وجل في ثلاثة مواضع: في البقرة: "وَاخْشَوْنِي "، وصله ووقفه بالياء، وفي المائدة: "وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ "، وصله ووقفه بغير ياء، وفيها: وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا " قرئ وصلا بالياء ووقفا بغير ياء)[3]، وأنه إنما حذفت الياء من قوله: "وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ " لفظًا لالتقاء الساكنين، وخطًّا تبعًا لحذفها في اللفظ.[4] والله – تعالى– أعلم بأسرار كتابه.

---

(١) أورده الفراء في معاني القرآن ١/ ٩١، والبغدادي في خزانة الأدب ٥/ ٢٣٢، وذكرا بأن الشاهد فيه هو: يحذفون ياء التأنيث – من كلمة " ويخضب– وهي دليل على الأنثى اكتفاء بالكسرة، وقد ذكر البغدادي بـ "أن هذا لغة لا ضرورة "، ينظر: خزانة الأدب ٢٣١/٥.

(٢) قواعد الترجيح عند المفسرين ١١٠/١.

(٣) الحجة في القراءات السبع لابن خالويه ١٣٠/١، وإتحاف فضلاء البشر لابن البناء الدمياطي ١٥٤/١.

(٤) فتح الرحمن بكشف ما يلتبس من القرآن ١٢٩/١، وينظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي ٤٠٤/١. ومما يندرج تحت هذا المطلب قوله تعالى: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ﴾سورة الأعراف من الآية (١٧٨)، وقوله سبحانه: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ﴾سورة الإسراء من الآية (٩٧)، وسورة الكهف من الآية (١٧). ينظر: البرهان في توجيه متشابه القرآن ١٢٩/١.

المطلب الثاني: ضمير التكلم بين الإثبات والحذف:

قوله تعالى: ﴿ وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾[1]، وقوله سبحانه: ﴿ وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾[2].

لماذا حُذف ضمير التكلم من الآية الأولى – حيث سورة آل عمران– بينما ثبت في الآية الثانية – حيث سورة المائدة– مع أن الآيتين في الموضعين في شأن واحد؟[3]

دراسة المسألة:

لا خلاف بين المفسرين في أن ما ورد في سورة المائدة – حيث الإثبات– جاء على الأصل إلا أنهم اختلفوا في المراد بهذا الأصل– والذي ظهر من خلال توجيههم للآية الواردة في سورة آل عمران– **على قولين:**

القول الأول: ذهب أصحابه إلى أن ما جاء في سورة المائدة هو أول كلام الحواريين، فأتى في الكلام ما يدل على زيادة المعنى من خلال زيادة المبنى ولا سيما وأن ضمير التكلم جائز الإثبات، وأن ما جاء في سورة آل عمران هو حكاية كلامهم فناسبه التخفيف ولا سيما أن ضمير التكلم جائز الحذف.

قال الإسكافي: " إن الذي في سورة المائدة جاء على الأصل غير مخفف بالحذف، لأنه أول كلام الحواريين في هذا المعنى، ألا تراه خبرًا عن الله تعالى أنه قال: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾[4]، والذي في

---

(١) سورة آل عمران من الآية (٥٢).

(٢) سورة المائدة الآية (١١١).

(٣) حيث يقول الله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ سورة آل عمران، ويقول سبحانه: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ سورة المائدة.

(٤) سورة المائدة الآية (١١١)

سورة آل عمران حكاية عن عيسى عليه السلام أنه ساهم عما أقروا به لله تعالى، فقال ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[1] فكان ذلك منهم إقرارا ثانيا لرسوله عليه السلام بمثل ما أقروا به الله تعالى، والثاني يختار فيه من التخفيف ما لا يختار في الأول، لأن الأول قد وفى العبارة حقها، والثانية معتمدة على ما قبلها، وهي مكررة، والعرب تستثقل المعاد ما لا تستثقل غيره، فاختير في سورة آل عمران ما لم يختر في سورة المائدة لذلك".[2]

واستدلوا على ذلك بما يلي:

أولًا: الآيات القرآنية الكريمة، والتي فيها مراعاة رسم المصحف من حيث الإثبات والحذف؛ إذ قد جاءت مرة بالإثبات وأخرى بالحذف كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾[3]، وقوله: ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾[4]، وكما في قوله جل جلاله: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ ﴾[5]، ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾[6].

وجه الدلالة: أن هذا النوع جائز الإثبات والحذف من غير ترجيح لأحدهما، فالإثبات على الأصل ومن العرب من يحذف إحدى النونين.[7]

ثانيًا: **مراعاة للسياق، وموافقة للنظم**، حيث إن " آية المائدة في خطاب الله تعالى لهم أولًا، وفى سياق تعدد نعمه عليهم أولًا، فناسب سياقه تأكيد انقيادهم إليه أولًا عند إيحائه إليهم، وآية آل عمران في خطابهم المسيح لا في سياق تعدد النعم، فاكتفى ثانيا بـ (أنَّا)

(١) سورة آل عمران من الآية (٥٢).
(٢) درة النزيل وغرة التأويل ٣٨٥/١، ٣٨٦.
(٣) سورة هود من الآية (٦٢).
(٤) سورة إبراهيم من الآية (٩).
(٥) سورة طه من الآية (١٢).
(٦) سورة طه من الآية (١٤).
(٧) ينظر: همع الهوامع في شرح جمع الجوامع للسيوطي ٢٦٠/١، وإعراب القرآن للنحاس ٢٨٨/١.

لحصول المقصود"[١]، فآية سورة المائدة صورت أوفى الأمرين وأتم الحالتين حيث التفصيل فناسب الإتمام الإتمام حيث الإثبات والذي يعبر عنه بالأصل، بخلاف ما في سورة آل عمران فتكرار فناسبه الإيجاز والتخفيف، و" كلا من التخفيف والتكرار فرع، والفرع بالفرع أولى".[٢]

وقد ذهب إلى هذا القول جمهور المفسرين.[٣]

القول الثاني: ذهب أصحابه إلى أن آية سورة المائدة جاءت على الأصل حيث وجوب إثبات ضمير التكلم، ولا سيما في مقام التكلم، وأن آية سورة آل عمران حذفت منها ضمير التكلم وهو على خلاف الأصل؛ لكراهية توالي الأمثال، وتجنبًا للثقل من وقوع ثلاث نونات.[٤]

ودليلهم على ذلك: هو أنه إذا اجتمعت ثلاثة أحرف هجائية من نوع واحد وجب حذف أحدها لوجود ما يدل عليه، فـ " إنا" أصلها ("إننا"، فلما اجتمع ثلاث نونات حذفوا واحدة اختصارا، وقد جاء في القرآن: (واشهد بأننا مسلمون): على الأصل، و«بأنا» على الحذف)[٥]، ولما فيه من كراهية توالي الأمثال.

---

(١) كشف المعاني لابن جماعة صـ ١٣٠.

(٢) فتح الرحمن لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري ٩٠/١.

(٣) الإسكافي في درة التنزيل وغرة التأويل٣٨٥/١، والكرماني في غرائب التفسير وعجائب التأويل ٢٨٥/١، والبرهان في توجيه متشابه القرآن ٩١/١، والغرناطي في ملاك التأويل ٨٧/١، وزكريا الأنصاري في فتح الرحمن ٩٠/١، وابن جماعة في كشف المعاني صـ ١٣٠، والفيروز آبادي في بصائر ذوي التمييز ١٦٤/١، والنحاس في إعراب القرآن ٢٨٨/١، والبقاعي في نظم الدرر ٣٤٣/٦، والآلوسي في روح المعاني ٥٠٢/٣.

(٤) البحر المحيط ٤٠٨/٤.

(٥) إعراب ثلاثين سورة لابن خالويه صـ ٢٠٨، وينظر: حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ١٨٢/١، والنحو الوافي ٩٥/١.

ويجاب عنه بأنه يمتنع تحقق توالي الأمثال بأن تكون إحدى حروفه أصلية " فإن كانت إحداهما أصلية وجب بقاء الأصلية، كقوله تعالى: ﴿ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾[1]".[2]

الخلاصة:

مما سبق نستخلص أن الأصل الذي أشار إليه العلماء في توجيههم للآية الواردة في سورة المائدة – " واشهد بأننا مسلمون– إنما هو بداية الشيء ومنطلقه – الذي تفرع عنه غيره؛ إذ جاء عقبه وتاليًا له، وهو آية سورة آل عمران– فناسبه التفصيل والإتمام حيث تعدد نعم الله – تعالى– عليهم وإيحاؤه إليهم، فكان فيه من التأكيد ما يوافق السياق، وذلك ما تم به توجيه قوله: " ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُنْ ﴾[3] فِي هَذِه السُّورَة وَفِي الْبَقَرَة ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ﴾[4]؛ لِأَن مَا فِي هَذِه السُّورَة جَاءَ على الأَصْل وَلم يكن فِيهَا مَا أوجب إِدْخَال نون التوكيد فِي الْكَلِمَة بِخِلَاف سُورَة الْبَقَرَة فَإِن فِيهَا فِي أول الْقِصَّة ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ﴾[5] بنُون التوكيد فَأوجب الازدواج إِدْخَال النُّون فِي الْكَلِمَة فَيصير التَّقْدِير فلنولينك قبْلَة ترضاها فَلَا تكونن من الممترين٠٠".[6]

والله – تعالى– بأسرار كلامه.

---

(١) سورة يوسف من الآية (٣٢).

(٢) النحو الوافي ١٨٦/٤.

(٣) سورة آل عمران من الآية (٦٠).

(٤) سورة البقرة من الآية (١٤٧).

(٥) سورة البقرة من الآية (١٤٤).

(٦) البرهان في توجيه متشابه القرآن ٩٢/١، بصائر ذوي التمييز ١٦٤/١.

المطلب الثالث: في بيان التسبيح قبل طلوع الشمس وقبل غروبها:

قال الله –تعالى–: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾[1]، وقوله جل جلاله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴾[2]

الآيتان تحثان على دوام التسبيح واستمراريته فذكرتا هاتين الوقتين، وهما: قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، فالطلوع مضاف إلى الشمس، وكذلك الغروب، فلماذا تنوع الأسلوب القرآني في الآيتين حيث جاء في الآية الأولى مضاف إلى الشمس – قبل غروبها– ولم يأت كذلك في الآية الثانية؟

دراسة المسألة:

أورد العلماء في توجيه هاتين الآيتين ما يفيد بأن آية سورة طه – قبل غروبها– جاء على الأصل من أن الغروب مضاف إلى الشمس كما أن الطلوع مضاف إليها كذلك، واستعيض عن اسم الظاهر بالضمير، أما في سورة ق فإنه قد عُدل عن هذا الأصل ولم يضف الغروب إلى الشمس؛ لمراعاة الفواصل القرآنية الواردة في السورة الكريمة.[3]

---

(١) سورة طه من الآية (١٣٠).

(٢) سورة ق من الآية (٣٩).

(٣) ينظر: درة التنزيل للإسكافي ١٢٠٢/٢، البرهان في متشابه القرآن للكرماني ٢٢٩/١، ملاك التأويل للغرناطي٣٤٣/٢، بصائر ذوي التمييز للفيروز آبادي ٤٣٨/١.

واستدلوا على ما ذهبوا إليه بأمور منها:

أولًا: مراعاة الفواصل القرآنية.(١)

قال الإسكافي: "للسائل أن يسأل عن الموضعين وأن يقول: لِم كان في سورة طه: (وقبل غروبها) وفي هذه: (وقبل الغروب)؟ **والجواب قريب**، وهو: أن فواصل أكثر الآيات في سورة طه أواخرها ألف، فعدل إلى (غروبها)، وهو الأصل؛ لأن الطلوع مضاف إلى الشمس وحق الغروب أن يكون مضافا إلى ضميرها، وضميرها بعدها ألف، وأما سورة ق فإن فواصلها مردوفة بواو أو ياء، كالسجود والجلود، والقعيد والعتيد والمَرِيج والغروب متى ذكر علم أنه أريد به غروبها، فكان ذلك أشبه بالفواصل إلي تقدمتها في المكانين، فلذلك اختلفا ".(٢)

ثانيًا: مراعاة السياق، والذي يقتضي "حمل التسبيح فيهما على معنى الصلاة الإشعار بمدى أهمية الصلاة في أي زمان ومكان وعلى أي نحو من الأنحاء، والإعلام بضرورة الاستدامة عليها والصبر والمثابرة على أدائها والدعوة إليها، وبيان عظيم مكانتها بين أركان الدين لكونها عموده وأن لا معنى لإسلام المرء بدونها لكونها ناهيته عن الفحشاء والمنكر والبغي، والإعلام كذلك بمدى حاجة المسلم لما خُص منها في الوقتين من محو سيئات ومن رفع درجات، يعضد ذلك قوله فيما ولي آية طه المذكورة: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾(٣)".(٤)

---

(١) الفاصلة هي: آخرة كلمة في الآية، وإنما سميت فاصلة؛ لأنها تفصل بين الآي، وتميز بينها، وقيل: الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع يقع بها إفهام المعنى، وبعضهم اعتبر الفاصلة كلمة آخر الجملة سواء أكانت هذه الجملة في أول الآية أو وسطها أو آخرها- وهو ما سار عليه الإسكافي وغيره هنا في هذا التوجيه؛ إذ آية سورة طه ليست في نهاية الآية-. ينظر: البرهان للزركشي ٥٣/١ وما بعدها، الإتقان للسيوطي صـ ٧٥٦ وما بعدها، خصائص التعبير القرآني للمطعني ٢١٨/١ وما بعدها.

(٢) درة التنزيل وغرة التأويل ١٢٠٢/٢.

(٣) سورة طه من الآية (١٣٢).

(٤) من بلاغة القرآن في التعبير بالغدو والآصال والعشي والإبكار، د/ محمد عبد العليم الدسوقي صـ ١١٨.

وهذا من شأنه جعل المفسرين يتأملون النص القرآني؛ لاستخراج الجمال الأسلوبي، والتنوع البلاغي بين قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾[1]، وقوله جل جلاله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾[2]، وأن الآيتين تحدثتا عن الوقتين وعبرتا عنهما بالطرف، إلا أنه اختلف الأسلوب في التعبير عنهما، فأحدهما جاء بأسلوب التثنية، والآخر جاء بأسلوب الجمع، فما علة اختلاف الأسلوبين؟

وقد اختلف المفسرون في توجيه ذلك على ثلاثة أقوال:

القول الأول: ذهب أصحابه إلى أن التثنية جاءت على الأصل، والجمع لأمن اللبس كقوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾[3]أو مشاكلة لآناء الليل، وإنما جاء على التثنية؛ إذ النهار ليس له إلا طرفان؛ لأن الطرف حقيقة فيما ينتهي به الشيء وهو منه، ويطلق على أوله وآخره وإطلاقه على الملاصق المذكور ليس بحقيقة.[4]

القول الثاني: ذهب أصحابه إلى أنه لا تغاير بين الأسلوبين؛ إذ كلاهما جمع، فإن أقل الجمع اثنان، وعليه فيسقط السؤال.[5]

القول الثالث: ذهب أصحابه إلى أن كلًّا من الآيتين حيث التثنية والجمع حقيقة؛ إذ " النهار له أربعة أطراف: أوله، وآخره وآخر نصفه الأول، وأول نصفه الثاني، والكل مستغرق بالتسبيح، أما الأول والآخر فبالصبح والعصر، وأما الآخران فبالتهيؤ للصلاة ثم الصلاة نفسها ".[6]

---

(١) سورة طه من الآية (١٣٠).

(٢) سورة هود من الآية (١١٤).

(٣) سورة التحريم من الآية (٤).

(٤) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان ٣٩٩/٧، حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي٤٠٧/٦، تفسير الآلوسي ٣٨٢/٩.

(٥) تفسير الرازي١٣٠/٢٢.

(٦) نظم الدرر للبقاعي٣٦٨/١٢، وينظر: البحر المديد لابن عجيبة ٤٣٤/٣، التفسير البسيط للواحدي ٥٥٨/١٤.

وأجيب عن ذلك بأن " إطلاق الطرف على طرف أحد نصفيه تكلف فإنه ليس طرفا له بل لنصفه ".(١)

الخلاصة:

مما سبق يتضح أن التعويل على مراعاة الأصل قول وجيه، ومسلك سديد، ورأي رشيد، وذلك لعدة أسباب منها:

أولًا: التعويل على الشائع والمطرد في القرآن الكريم؛ حيث الإكثار من هذين الوقتين الذين تعدد ذكرهما في الذكر الحكيم بأساليب مختلفة وطرائق متعددة، منها: العشي والإبكار، الغدو والآصال، طلوع الشمس وغروبها، وعليه فحمل التفسير على الغالب من أسلوب القرآن أولى من الخروج به عن ذلك.

ثانيًا: أنه ليس كل ما ثبت في اللغة صح حمل آيات التنزيل عليه، بل لا بد مع ذلك من مراعاة القرائن، من حيث النظم القرآني ودلائل السياق.(٢)

ثالثًا: مكانة الفاصلة، فـ "إيقاع المناسبة في مقاطع الفواصل حيث تطرد متأكد جدا ومؤثر في اعتدال نسق الكلام وحسن موقعه من النفس تأثيرا عظيما ولذلك خرج عن نظم الكلام لأجلها ".(٣)

والله – تعالى – اعلم بأسرار كتابه.

---

(١) روح المعاني ٣٨٢/٩.

(٢) قواعد الترجيح عند المفسرين لحسين الحربي ٣٦٣/٢.

(٣) البرهان في علوم القرآن ٦٠/١.

ومما يندرج تحت هذا المطالب، من حيث التسبيح الشامل لجميع الأوقات والجهات من تنوع الأسلوب القرآني في ذلك، فقد استفتحت بعض سور القرآن التسبيح ومع ذلك لم يلزم صورة واحدة.

قال شيخ الإسلام زكريا الأنصاري: "" قوله تعالى: (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ. .) عبَّر هنا وفي الحشر والصفِّ بالمضي، وفي الجمعة والتغابن بالمضارع، وفي الأعلى بالأمر، وفي الإسراء بالمصدر، استيعاباً للجهات المشهورة لهذه الكلمة، وبدأ بالمصدر في الإسراء لأنه الأصلُ، ثم بالمضي لسبق زمنه، ثم بالمضارع لشموله الحال والمستقبل، ثم بالأمر لخصوصه بالحال مع تأخره في النطق به في قولهم: فَعَلَ، يَفْعَل، افعَلْ " فتح الرحمن صـ٥٥١، وينظر: البرهان في توجيه متشابه القرآن صـ٢٣٢، ملاك التأويل ٤٦٧/٢، بصائر ذوي التمييز ٤٥٤/١.

المبحث الرابع: مراعاة الأصل حيث القواعد العربية:

مدخل: القرآن الكريم نزل بلغة العرب وبلسانهم، ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾[1]، تلك اللغة التي اتسمت بالدقة والمتانة، واتصفت بالمرونة واليسر، وعُرفت بالشمولية والاتساع، فكانت أرقى اللغات أسلوبًا، وأعذبها تعبيرًا، وأدقها تناولًا، وعندما جاء القرآن الكريم بها أكسبها عُذُوبةً في اللفظ، ورقّة في التركيب، ودقّة في الأداء، وثراء في المعاني، فضمن لها بقاءها ببقائه، ذلك أنه " اصطنع لنفسه من لغات العرب كيانًا، وتألف منها كلامًا هو وحدة واحدة – بخصائصها اللغويّة- صارت لغة القرآن، بمميزاتها، أو بمميزاته، فإنّها فيه ليست كهى في خارجه، وهي عربية في نحوها وصرفها وصورها البلاغية، لكنها عربية لا كالعربية؛ لأنّها بلغت حدّ الإعجاز، ولهذا اختصت بالقرآن وأضيفت إليه في قولنا: (عربية القرآن)، لا نظير لهذه المميزات في أي كتابٍ أدبي، أو أيّة معلقة شعرية أو نحو ذلك عند العرب والناس أجمعين ".[2]

وذلك لما فيه من تصريف ألفاظه بأنْ أتى المعنى الواحد بألفاظ مختلفة ومفردات متعددة كل ذلك مع تلاحم في التراكيب، وتعانق في الأجزاء، وتماسك في الكلمات والجمل، تلك التي تحققت بها وجوه الإعجاز؛ إذ الفصاحة في الألفاظ، والبلاغة المعاني، والجودة في النظم، هذه المعاني التي أشار إليها الخطابي، حيث قال: "وإنّما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظٌ حاملٌ، ومعنى به قائمٌ، ورباطٌ بهما ناظمٌ، وإذا تأملتَ القرآن وجدتَ هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة، حتى لا ترى شيئًا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظمًا أحسن تأليفًا، وأشدّ تلاؤمًا، وتشاكلًا من نظمه٠٠٠ واعلم أنّ القرآن إنّما صار معجزًا؛ لأنّه جاء بأفصح الألفاظ، في أحسن نظوم التأليف مضمنًا أصح المعاني، ٠٠ ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور، والجمع بين

---

(١) سورة الشعراء الآية (١٩٥).

(٢) التفسير والمفسرون في ثوبه الجديد أ د/ عبد الغفور محمود مصطفى جعفر صـ ٤٩ وما بعدها، ط: دار السلام، (٢) ١٤٣٣هـ =٢٠١٢م.

أشتاتها حتى تنتظم وتتسق أمر تعجز عنه قوى البشر، ولا تبلغه قدرهم، فانقطع الخلق دونه، وعجزوا عن معارضته بمثله أو مناقضته في شكله ".[١]

ولأجل هذا كان ولا بد من إتقان العربية، والوقوف على دقائقها وأسرارها، ومعرفة تصاريفها واشتقاقات ألفاظها، وممارسة طرائق تعبيرها وسُنن بيانها، ولا سيما ما قعّده العلماء من قواعدها، وضبطوا به شتات أمرها، وما أصّلوا به فنونها؛ ليتم التمكن من الوقوف على لغة القرآن الكريم، وكيف أن الذكر الحكيم "في كلّ شأنٍ يتناوله من شئون القول يتخيّر له أشرف المواد، وأمسّها رحمًا بالمعنى المراد، وأجمعها للشوارد، وأقبلها للامتزاج، ويضع كلّ مثقال ذرة في موضعها الذي هو أحقّ بها، وهي أحقّ به، بحيث لا يجد المعنى في لفظه إلا مِرْآته الناصعة، وصورته الكاملة، ولا يجد اللفظ في معناه إلا وطنه الأمين، وقراره المكين، لا يومًا أو بعض يوم، بل على أن تذهب العصور وتجيء العصور، فلا المكان يريد بساكنه بدلًا، ولا الساكن يبغي عن منزله حِوَلًا، وعلى الجملة يجيئك من هذا الأسلوب بما هو المثل الأعلى في صناعة البيان".[٢]

وذلك ما دفع علماء التفسير أن يجعلوا هذا الباب من الأصول التي يجب الرجوع إليها، والتعويل عليها وبخاصة عند الآيات التي يوهم ظاهرها التعارض، فهو خير معين على إزالة الإلباس عن كثير من الناس، وأفضل سبيل للوقوف على مرامي أسرار التنزيل، وتشنيف المسامع باستخراج نكات بيانه، والطرب بإبراز لطائف بلاغته.

---

(١) بيان إعجاز القرآن صـ ٢٧، ٢٨، ضمن ثلاث رسائل الإعجاز.

(٢) النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم أ د/ محمد عبد الله دراز صـ ١٢١، وينظر: الإعجاز في دراسات السابقين دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها للشيخ/ عبد الكريم الخطيب صـ ١٤٣، ١٤٤، ط: دار الفكر العربي، (١) ١٩٧٢م.

المطلب الأول: في بيان علم الله – تعالى – بالمضلين عن سبيله:

قال الله –تعالى –: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾[1]، وقوله جل جلاله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾[2].

فهاتان الآيتان في بيان أن الله – تعالى – لا يعزب عن علمه أحد من الضآلين والصادين عن سبيله، فلماذا اختلف الأسلوبان حيث سقطت الباء من الآية الأولى وجيء الفعل مضارعًا، بينما ثبتت الباء في الآية الثانية وجيء الفعل ماضيًا؟

دراسة المسألة:

اختلف العلماء في توجيه هاتين الآيتين على قولين:

القول الأول: ذهب أصحابه إلى أن الأصل إثبات الباء ومجيء الفعل ماضيًا؛ لأن أفعل التفضيل " أعلم " لا ينصب بنفسه مفعولًا به، فهو لا يتعدى إلا بالباء، وأن الآية الأولى جاءت على خلاف الأصل حيث حذف الباء ومجيء الفعل مضارعًا؛ مراعاة للسياق، ولئلا يلتبس المفعول بالمضاف إليه فيكون المعنى: الله أعلم الضالين عن سبيله.

قال الكرماني: "قَوْله (إن رَبك هُوَ أعلم من يضل عَن سَبيله)، وَفِي (ن والقلم): (إِن رَبك هُوَ أعلم بِمن ضل عَن سَبيله) بِزِيَادَة الْبَاء وَلَفظ الْمَاضِي؛ لِأَن إِثْبَات الْبَاء هُوَ الأَصْل كَمَا فِي (ن والقلم) وَغَيرهَا من السُّور؛ لِأَن الْمَعْنى لَا يعْمل فِي الْمَفْعُول بِهِ فَنوى الْبَاء وَحَيْثُ حذفت أضمر فعل يعْمل فِيمَا بعده؛ وخصت هَذِه السُّورَة بالحذف مُوَافقَة لقَوْله (الله أعلم حَيْثُ يَجْعَل رسَالَته)[3] وَعدل هُنَا إِلَى لفظ الْمُسْتَقْبل؛ لِأَن الْبَاء لما حذفت الْتبس اللَّفْظ بِالْإِضَافَة تَعَالَى الله عَن ذَلِك، فنبه بِلَفْظ الْمُسْتَقْبل على قطع الْإِضَافَة؛ لِأَن أَكثر مَا يسْتَعْمل لفظ أفعل من يَسْتَعْمِلهُ مَعَ الْمَاضِي نَحْو: أعلم من دب ودرج، وَأحسن من قَامَ

---

(١) سورة الأنعام من الآية (١١٧).

(٢) سورة النحل من الآية (١٢٥)، وسورة النجم من الآية (٣٠)، وسورة القلم من الآية (٧).

(٣) سورة الأنعام من الآية (١٢٤).

وَقعد، وَأفضل من حج وَاعْتمر، فَتنبه فَإِنَّهُ من أسرار الْقُرْآن؛ لِأَنَّهُ لَو قَالَ: أعلم من ضل بِدُونِ الْيَاء مَعَ الْمَاضِي لَكَانَ الْمَعْنى أعلم الضَّالّين ".[١]

واستدل هؤلاء على ما ذهبوا إليه بالآتي:

أولًا: النصوص القرآنية، حيث ورد ما يزيد على ثلاثين موضعًا في القرآن الكريم[٢] جاء أفعل التفضيل "أعلم " متعديًا بالباء مما يدل على أنه الأكثر والشائع، كما أنه ورد في القرآن الكريم أربع آيات[٣]تفيد أن الله –تعالى – أعلم بالضالين عن سبيله: ثلاث آيات منها تعدى أفعل التفضيل فيها بالباء، وواحدة بدون الباء مما يدل على أن الإثبات هو الأصل.

ثانيًا: سياق الآيات، حيث جاء في سورة الأنعام " بلا " باء " وبالمضارع، موافقة لقوله بعدُ " الله أعلمُ حيثُ يجعل رسالته "، وقال في " النَّحل " و " النَّجم " و " ن ": "بِمَنْ ضَلَّ " بزيادة الباء وبالماضي، عملًا بزيادة الباء في مفعول " أعلمُ " تقويةً له لضعفه، كما في قوله تعالى "وهو أعلمُ بالمهتدين "، وقوله " وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى "[٤] وعملاً في الماضي بكثرة الاستعمال ...".[٥]

ثالثًا: القواعد العربية، والتي تدل على أن أفعل التفضيل "إن كان فعله متعديًا بنفسه، دالًا على: "علْم" كانت تعديته بالباء؛ نحو: صديقي أعلم بي، وأنا أعرف به وأدرى

---

(١) البرهان في توجيه متشابه القرآن١١٣/١، ينظر: بصائر ذوي التمييز ١٩٨/١، كشف المعاني صـ ١٦٦.

(٢) منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ سورة الأنعام من الآية (١١٩)، وقوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾ سورة النساء من الآية (٤٥)، وقوله: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ سورة يونس من الآية (٤٠).

(٣) سورة الأنعام من الآية (١١٧)، وسورة النحل من الآية (١٢٥)، وسورة النجم من الآية (٣٠)، وسورة القلم من الآية (٧).

(٤) سورة النجم من الآية (٣٠).

(٥) فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن ١٧٥/١.

بأحواله"(١)، وعليه يكون إعراب "من " في قوله تعالى: " أعلم من يضل" المحذوفة الباء منها في محل نصب بنزع الخافض، والتقدير: بمن يضل.(٢)

القول الثاني: ذهب إلى أنه ليس بين الآيتين تشابه حتى يُجتهد في التوجيه بينهما، ذلك أن الآية الأولى – حيث سورة الأنعام – ما بعد أفعل التفضيل "أعلم " فيها منصوب بفعل مقدّر يدل عليه أفعل التفضيل، أو أن ما بعده مبتدأ – استفهام– خبره " يضل" والمعنى: أعلم أيّ الناس يضل عن سبيله، كما أنه لا يجوز أن يكون (أَعْلَمُ) مضافا إلى (مَنْ)؛ لأن أفعل التفضيل بعض ما يضاف إليه.(٣)

ودليلهم على ما ذهبوا إليه بالآتي:

أولًا: **الشعر العربي**، حيث قال الشاعر:

أكَرَّ وأَحْمَى للحقيقةِ منهمُ ... وأَضْرَبَ منا بالسيوف القوانِسا(٤)

ثانيًا: **القواعد العربية**، والتي تدل على أنه " إذا كانت (من) بعد العلم والنظروالدراية– مثل نظرت وعلمت ودريت– كانت فِي مذهب أيّ، فإن كَانَ بعدها فعل لَهَا رفعتها بِهِ، وإن كَانَ بعدها فعل يقع عليها نصبتها، كقولك: ما أدرى من قام، ترفع (من) بقام، وما أدري من ضربت، تنصبها بضربت ".(٥)

---

(١) النحو الوافي ٤٣٣/٣، وينظر: شرح التصريح بمضمون التوضيح ٩٦/٢، حاشية الصبان على شرح الأشموني ٨١/٣.

(٢) ينظر: تفسير القرطبي٦٦/٤، التحرير والتنوير لابن عاشور٢٩/٨.

(٣) المحرر الوجيز ٣٣٨/٢.

(٤) البيت من بحر الطويل وهو لعباس بن مرداس، والشاهد: القوانسا فالقوانِس، فقد نُصِبَ بإضمار فعلٍ، أي: يَضْرِبُ القوانس، ولا يجوز أن يكون انصابه عن أضرب لأن أفعل الذي يتم بمن لا يعمل إلا في النكرات، كقولك: هو أحسن منك وجهاً. ينظر: شرح ديوان الحماسة للمرزوقي٣١٨/١، خزانة الأدب للبغدادي ٣١٩/٨، الدر المصون للسمين الحلبي ١٢٧/٥.

(٥) معاني القرآن للفراء ٣٥٢/١، التفسير البسيط للواحدي٣٩٠/٨.

الخلاصة:

مما سبق يمكننا أن نستخلص بأن القول الأول سديد، وتوجيهه رشيد، وذلك لعدة أسباب، منها:

أولًا: القاعدة الترجيحية والتي تقول: "ليس كل ما ثبت في اللغة صح حمل آيات التنزيل عليه "[(١)]، وذلك ما قاله الطبري، حيث قال: " وهذا الذي قاله قائل هذا التأويل، وإن كان جائزًا في كلام العرب، فليس قولُ الله تعالى ذكره: (إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله) منه ".[(٢)]

ثانيًا: وجود آيات قرآنية تدل على اطراد إثبات الباء، وكذلك قرائن في السياق تدل على أن "مَن " منصوبة بنزع الخافض، وهو الباء " كما دل عليه وجود الباء في قوله: "وهو أعلم بالمهتدين"؛ لأن أفعل التفضيل لا ينصب بنفسه مفعولا به لضعف شبهه بالفعل، بل إنما يتعدى إلى المفعول بالباء أو باللام أو بإلى، ونصبه المفعول نادر، وحقه هنا أن يعدى بالباء، فحذفت الباء إيجاز حذف، تعويلا على القرينة. وإنما حذف الحرف من الجملة الأولى، وأظهر في الثانية، دون العكس، مع أن شأن القرينة أن تتقدم، لأن أفعل التفضيل يضاف إلى جمع يكون المفضل واحدا منهم، نحو: هو أعلم العلماء وأكرم الأسخياء، فلما كان المنصوبان فيهما غير ظاهر عليهما الإعراب، يلتبس المفعول بالمضاف إليه، وذلك غير ملتبس في الجملة الأولى، لأن الصلة فيها دالة على أن المراد أن الله أعلم بهم ...".[(٣)]

ثالثًا: أن كلًّا من أصحاب القولين ذهب إلى أن أفعل التفضيل "أعلم " على بابه، بخلاف من ذهب إلى أنها ليست للتفضيل، وأنها بِمَعْنَى اسم فاعل في قوتهن كأنه قيل:

---

(١) قواعد الترجيح عند المفسرين لحسين الحربي٢/٣٦٣.

(٢) جامع البيان ١٢/٦٧.

(٣) التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور ٨/٢٩.

إن ربَّك هو يَعْلَم، فهو غير سديد، ورأيه بعيد، ولا يجوز ذلك؛ لأنَّه لا يطَابِق قوله تعالى بعدُ في الآية: (وهو أعْلَم بالمُهتَدين).[1]

والتفضيل في العلم يكون بكثرته وإحاطتِه بالوجوه التي يمكن تعلّقُ العلمِ بها، أيْ: من خلال النظر إلى المعلومات فإنها غير متناهية، أو من خلال النظر إلى وجوه العلم التي يمكن تعلقه بها، وإما أن يكون باعتبار الكيفية وهي لزوم العلم له سبحانه أو كونه بالذات لا بالغير.[2]

والله – تعالى– أعلم بأسرار كتابه.

(١) اللباب في علوم الكتاب لابن عادل٣٩٨/٨، وينظر: التفسير البسيط للواحدي٣٨٩/٨.

(٢) تفسير أبي السعود١٧٩/٣، تفسير الآلوسي١٨/٥.

وشبيه بهذه المسألة: قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ ﴾ سورة القصص من الآية (٣٧)، وقوله سبحانه: ﴿ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ سورة القصص من الآية (٨٥). ينظر: البرهان في توجيه متشابه القرآن١٩٥/١، بصائر ذوي التمييز ٣٥٥/١.

المطلب الثاني: " خلائف" بين التعريف والتنكير:

قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ ﴾[1]، وقوله جل جلاله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلۡأَرۡضِ ﴾[2].

لمَ جاءت خلائف في الآية الأولى– حيث سورة الأنعام– معرفة، وإنما اكتسبت التعريف من خلال إضافتها للأرض، بينما في الآية الثانية – حيث سورة فاطر– جاءت خلائف نكرة؟

دراسة المسألة:

اختلف العلماء في توجيه هاتين الآيتين **على قولين:**

القول الأول: ذهب أصحاب إلى أن آية سورة فاطر – وهو قوله سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلۡأَرۡضِ ﴾– بها من الشيوع ما يدل على أن المخاطبين بها ليس لهم من التملك والتصرف؛ إذ هم نكرة، بخلاف آية سورة الأنعام– وهو قوله سبحانه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ ﴾– بها من التعريف ما يدل على أنهم خلفاء الأرض المالكون لها.

قال الفيروزآبادي: (قوله: "جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأرض" في هذه السّورة، وفى يونس والملائكة: "جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأرض"[3]؛ لأَنَّ في هذه – أي: سورة الأنعام– العشر الآيات[4] تكرّر ذكر المخاطبين مرَّات، فعرّفهم بالإضافة؛ وقد جاءَ في السّورتين – أي:

---

(١) سورة الأنعام من الآية (١٦٥).

(٢) سورة فاطر من الآية (٣٩).

(٣) تلك آية سورة يونس (١٤)، بينما آية سورة فاطر: " جعلكم خلائف في الأرض".

(٤) وذلك من قوله تعالى: " قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ" إلى قوله سبحانه: " مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا" سورة الأنعام (١٥١– ١٦٠).

سورة يونس وسورة فاطر- على الأَصل، وهو ﴿ جَاعِلُ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[1]، ﴿ جَعَلَكُمْ مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾[2]).[3]

واستدل هؤلاء على ما ذهبوا إليه بالآتي:

أولًا: القرآن الكريم، قال عزّ من قائل: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[4]، وقوله: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[5]، وقوله: ﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[6]، وغيرها من الآية التي تدل على أن الإنسان خليفة في الأرض وليس خليفة لها؛ إذ الخليفة من يخلف غيره ويقوم مقامه في مكان أو عمل أو غيره.[7]

ثانيًا: سياق الآيات، فـ (آية الأنعام تقدمها ما هو من سياق النعم عليهم من قوله تعالى: (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ)[8] إلى قوله تعالى: (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا)[9]، فناسب الخطاب لهم في ذلك بلفظ التعريف الدال على أنهم خلفاؤها المالكون لها، وفيه من التفخيم لهم ما ليس في آية فاطر؛ لأنه ورد في آية فاطر نكرة،

---

(١) سورة البقرة من الآية (٣٠).

(٢) سورة الحديد من الآية (٧).

(٣) بصائر ذوي التمييز ١/٢٠٠، وينظر: فتح الرحمن لزكريا الأنصاري صـ١٨٣.

(٤) سورة البقرة من الآية (٣٠).

(٥) سورة ص من الآية (٢٦).

(٦) سورة الأعراف من الآية (١٢٩).

(٧) معجم ألفاظ القرآن الكريم ١/٣٦٩، المفردات في غريب القرآن للراغب صـ٢٩٤.

(٨) سورة الأنعام من الآية (١٥١).

(٩) سورة الأنعام من الآية (١٦٠).

فقال: خلائف فيها، فليس فيه من التمكن والتصرف ما في قوله تعالى: "خَلَائِفَ الْأَرْضِ"(١)).(٢)

ثالثًا: ما عليه جمهور النحويين من أن النكرة أصل والمعرفة فرع؛ إذ في النكرة من الشيوع ما ليس في المعرفة، ولذلك فالنكرة أصلٌ للمعرفة ومتقدّمةٌ عليها.(٣)

فآية سورة فاطر " ٠٠أخرج لفظ (الخلائف) مخرج النكرة كأنه قال: جعلكم خلفا لمن تقدّمكم غير معلوم إلاّ عند الله ما يكون من أمركم، فأنتم مجهولون عند أشباهكم وأمثالكم، فمن كفر منكم فضرر كفره راجع عليه، فكان التنكير أولى بهذا المكان، لأنه لم يتقدمه من الأسماء المضمرة التي للخطاب المعرفة بحكم الإضمار ما تقدم في سورة الأنعام، ثم نزلهم منزلة قوم مجهولين لا يتوقع ما يكون من أمرهم في إيمانهم أو كفرهم، فلم يجعلوا في حكم الخطاب الأول في قوم بأعيانهم للانقسام الواقع عليهم، فهذا فرق ما بين المكانين".(٤)

القول الثاني: ذهب أصحابه إلى أن الآيتين بمعنى واحد، فهما متساويان في المعنى، وأن ما جاء على الإضافة – حيث سورة الأنعام– إنما هي على معنى "في"، وهو كون الخطاب للمشركين، أي: خلائف فيها، أي خلف بكم أُممًا مضت قبلكم٠٠٠".(٥)

ودليلهم: أن المتأخرين من النحاة ذهبوا إلى أنه إذا كان المضاف إليه ظرفًا – مكانًا كان أو زمانًا– للمضاف وواقعًا فيه كانت الإضافة بمعنى " في"؛ إذ "ضابط الإضافة التي تكون بمعنى "في" أن يكون الثاني – وهو المضاف إليه – ظرفًا للأول– وهو

---

(١) سورة الأنعام من الآية (١٦٥).

(٢) كشف المعاني لابن جماعة صـ٣٠٣.

(٣) شرح المفصل لابن يعيش ٣٥١/٣، همع الهوامع شرح جمع الجوامع للسيوطي٢١٩/١.

(٤) درة التنزيل وغرة التاويل ١٠٨٢/١، وممن ذهب إلى هذا القول الكرماني في البرهان في توجيه متشابه القرآن ١١٥/١، زكريا الأنصاري في فتح الرحمن ١٨٣/١، الفيروز آبادي في بصائر ذوي التمييز ٢٠٠/١، الغرناطي في ملاك التأويل ١٧٥/١، ابن جماعة في كشف المعاني صـ ٣٠٣.

(٥) التحرير والتنوير ٢١٠/٨، وينظر: حاشية الجمل على الجلالين ١٢٤/٢، فتح البيان في مقاصد القرآن للقنوجي ٢٩٥/٤.

المضاف– سواء أكان زمانًا أو مكانا، فالزمان: نحو: " مَكْرُ اللَّيْلِ "[١] ٠٠"و" المكان نحو: " يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ"[٢]، فالليل ظرف للمكر، والسجن ظرف للصاحبين، والتقدير: مكر في الليل، و يا صاحبان في السجن ".[٣]

الخلاصة:

مما سبق نستخلص أن ما ذهب إليه القول الأول من أن آية سورة فاطر حيث جعل خلائف نكرة هي الأصل وأن آية سورة الأنعام خرجت عن هذا الإطار؛ لبيان ما آل إليه حال المؤمنين الذين نفذوا ما أمرهم الله – تعالى– به ولا سيما الوصايا العشر الواردة في نهاية سورة الأنعام؛ إذ سورة الأنعام تدور حول إثبات الصانع ودلائل توحيده وأنها خُتمت " بخاتمة شريفة مطابقة لما بدئت السورة به من المقاصد، وهي قوله: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾[٤]، فإن الفاتحة فُتحت بذكر بدء النشأة الأولى؛ لبيان إثبات التوحيد، ونفي الشرك، والخاتمة بذكر بدء النشأة الأخرى، والأمر بالإخلاص، ونفي الشرك"[٥]، فناسب هذا ما ذكر من إنعامه على عباده بجعلهم خلائف الأرض، والتوسعة في الاستيلاء والإطلاق، فناسب الإطلاق الاطلاق[٦]، فهذا القول هو الذي تؤيده النصوص القرآنية وتدعمه سياق الآيات ونظمها وتؤكده القواعد النحوية، وهو الذي تطمئن إليه النفس، ويميل إليه القلب.

والله – تعالى– أعلم بأسرار كتابه.

---

(١) سورة سبأ من الآية (٣٣).

(٢) سورة يوسف من الآية (٤١).

(٣) شرح التصريح على التوضيح ٦٧٥/١، وينظر: توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك للمرادي ٧٨٤/٢، النحو الوافي ٢٠/٣.

(٤) سورة الأنعام الآية (١٦٢، ١٦٣).

(٥) فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب للطيبي ٣٠٢/٦.

(٦) ينظر: ملاك التأويل للغرناطي ١٧٥/١.

المطلب الثالث: في متعلق الظرف:

قال الله –تعالى –: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾[1]، وقال: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ﴾.[2]

حيث إن قوله سبحانه: "بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ " ظرف متعلقه قوله: "شَهِيدًۢا " فلماذا جاء في الآية الأولى مؤخرًا عن متعلقه، بينما في الآية الثانية جاء متقدمًا على متعلقه؟، مع أن الآيتين جاءتا في دفع الحجج الواهية والشبهات الزائفة للمنكرين لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وأن الله –تعالى – يأمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم: الله سبحانه عالم بما كان مني من تبليغ وإنذار وما كان منكم من جحود ونكران، فيجازي كلًّا بما يليق، وكفى بالله شهيدًا.

دراسة المسألة:

اختلف العلماء في توجيه هاتين الآيتين على قولين:

القول الأول: ذهب أصحابه إلى أن الآية الأولى جاءت على الأصل حيث تقديم " شَهيدًا" على الظرف؛ لكثرة وروده في القرآن الكريم، ولأنه العامل في الظرف فحقه التقديم، بينما في الآية الثانية جاء على خلاف الأصل؛ لعلّة بلاغية، ولطيفة قرآنية.[3]

(١) سورة الإسراء من الآية (٩٦)، وسورة الرعد من الآية (٤٣).

(٢) سورة العنكبوت من الآية (٥٢).

(٣) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية٢/١٧٢.

واستدل هؤلاء على ما ذهبوا إليه بما يلي:

أولًا: كثرة وروده في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ ﴾[1]، وقوله: ﴿ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ ﴾[2]، وقوله: ﴿ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ ﴾[3]، وقوله: ﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ ﴾.[4]

قال الكرماني: " قَوْله: "قل كفى بِاللَّه شَهِيدًا بيني وَبَيْنكُم "، وَفِي العنكبوت "قل كفى بِاللَّه بيني وَبَيْنكُم شَهِيدًا " كَمَا فِي الْفَتْح "وَكفى بِاللَّه شَهِيدًا "، والرعد "قل كفى بِاللَّه شَهِيدًا"، وَمثله "وَكفى بِاللَّه نَصِيرًا "[5]، "وَكفى بِاللَّه حَسِيبًا "[6]، فجَاء فِي الرَّعْد وَسُبْحَان على الأَصْل، وَفِي العنكبوت أخر "شَهِيدًا "؛ لِأَنَّهُ لما وَصفه بقوله: "يَعْلَم مَا فِي السَّمَاوَات وَالْأَرْض " طَال فَلم يجز الْفَصْل بِهِ ".[7]

ثانيًا: مراعاة السياق، فحيث كان الكلام مع المشركين وكفار مكّة قدمت (" الشهادة "على: "البينة " لأنهم حين لم تثمر فيهم النُذر التي بلغتهم عن ربهم أثاروا في الداعي شعور الاستياء منهم والأسف عليهم، فكأنه – أي الداعي – كان يردد في نفسه: ربي.. إن خروج هؤلاء عن الحق وتماديهم في الباطل، ليس عن تقصير مني لقد بلغتهم ما أمرتنى به، وأنت تعلم أنى قد بلغت، ههنا خصومة محتدة، ولا يفصل في الخصومات المحتدة أفضل من شهادة حق ...).[8]

---

(١) سورة يونس من الآية (٢٩).
(٢) سورة الرعد من الآية (٤٣).
(٣) سورة الأنعام من الآية (١٩).
(٤) سورة الأحقاف من الآية (٨).
(٥) سورة النساء من الآية (٤٥).
(٦) سورة النساء من الآية (٦).
(٧) البرهان في توجيه متشابه القرآن ١٦٧/١.
(٨) خصائص التعبير القرآني١٧٣/٢.

ثالثًا: **القواعد العربية**: حيث إن " شَهِيدًا" منصوب على الحال أو التمييز، وهي العامل في الظرف(١)، "وأصل الْعَامِل أَن يتَقَدَّم على الْمَعْمُول ".(٢)

القول الثاني: ذهب أصحابه إلى أنه لا يوجد متشابه بين الآيتين حتى يُجعل أحدهما أصل والآخر فرع؛ لأن الآية الواردة في سورة العنكبوت جاءت موصوفة بصفة وهو قوله سبحانه: ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾(٣)، فلا يجوز فصل الصفة عن الموصوف، وأيضًا فإن لتقديم الظرف سرّ بلاغي وهو التخصيص؛ لاحتمال العموم فيها بخلاف ما في الآية الأول.(٤)

واستدل هؤلاء على ما ذهبوا إليه بالآتي:

أولًا: **مراعاة السياق**، فآية سورة العنكبوت تقدم "شهيدًا " فيها؛ لأنها جاءت عقب مجادلة أهل الكتاب الذين يدّعون اتباع الرسل –عليهم السلام –، فالله –تعالى – يأمر نبيه ﷺ أن يقول لهم: لو كان اتباعكم حقًّا وكلامكم صدقًا لاتبعتموني؛ لأني واحد من الرسل، وأن ما وقع بيني وبينكم الله يطلع عليه ويعلم صدقي في تبليغكم وكذبكم في ادعائكم، وكفى بالله بيني وبينكم شهيدًا.(٥)

ثانيًا: **القواعد العربية**: والتي تنص على أن الظرف يتوسع فيه ما لا يتوسع في غيره؛ إذ "لا بد أن يتعلق الظرف بناصبه "أي: بعامله"، وليس من اللازم أن يكون عامله متقدمًا عليه، فقد يكون متأخرًا عنه ".(٦)

الخلاصة:

مما سبق يمكننا أن نستخلص أن القول الأول أقرب للصواب، وأولى بالجواب، فتوجيهه

---

(١) ينظر: تفسير الآلوسي٨/٦٠٥، إعراب القرآن وبيانه٥/١٣٦.

(٢) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ٢/٧٩٩، وينظر: لمسات بيانية لسور القرآن الكريم د/ فاضل السامرائي صـ ٣٧ (سورة يونس).

(٣) سورة العنكبوت من الآية (٥٢).

(٤) كشف المعاني في المتشابه من المثاني صـ ٢٣٦.

(٥) نكت وتنبيهات في تفسير القرآن المجيد٢/٣٨٠، وينظر: تفسير ابن عرفة٣/٢٦٩.

(٦) النحو الوافي٢/٢٤٥.

سديد، وتفسيره رشيد، وذلك لعدة أسباب، منها:

أولًا: أن المراد بالأصل إنما هو أسلوب القرآن الكريم ومعهود استعماله، فقد كثر ورود تقديم الشهادة على البينة في خمس آيات في القرآن الكريم – وقد سبق ذكرها آنفًا– مما يدل على أن ذلك هو الأصل.

ثانيًا: أن كل آية ناسبت سياقها، ووافقت نظمها، واتحدت مع مقصود السورة التي جاءت في إطارها، فتقديم الشهادة؛ لأن آياتها جاءت في أثناء الحديث عن المشركين– الذين أشركوا مع الله –تعالى – إلهًا آخر – ففي إحدى سورها يستشهد الله –تعالى– عليهم بأهل الكتاب، قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾[1] وأن من مقصود هذه السور تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم عن تكذيب المكذِّبين، وإلزام الحجّة على الكفار والمشركين، بينما سورة العنكبوت تأخرت فيها الشهادة؛ لأن من مقصود السورة " أَدب الجدال مع المنكرين، والمبتدعين"[2]، فاقتضي السياق التخصيص " أي: بيني أنا وبيَنكم أنتم لا بيني وبين أحد غيركم، والداعي للتخصيص هنا المستفاد من تقديم الظرف: " بيني وبينكم " على: " شهيداً " وهو العامل فيه أن قوله تعالى بعده: (يَعْلَمُ مَا فِي السماوات والأَرْضِ)، يفيد أن تعلق العلم –هنا – عام، وعلم الله بالعباد أحد أفراده؛ لذلك رجح – والله أعلم – تقديم الظرف لإفادة التخصيص، لاحتمال المقام العموم على خلاف الأول، وأمر آخر: هو أن تأخير: " شهيداً " ليجاور: " يعلم ما في السموات " من المناسبة في أعلى مكان، لأن الشهيد عالِم لا محالة!! "[3]

ثالثًا: أن الظرف وإن كان يتوسع فيه ما لا يتوسع في غيره، فيجوز تقديمه على عامله وتقديم عامله عليه، إلا أن الأصل أن يتقدم العامل على معموله.

والله – تعالى – أعلم بأسرار كتابه.

---

(١) سورة الرعد الآية (٤٣).

(٢) بصائر ذوي التمييز ٣٦٠/١.

(٣) خصائص التعبير القرآني١٧٣/٢.

المطلب الرابع: في بيان الارتباط بين الفعل والفاعل:

قال الله- تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾[1]، وقوله جل جلاله: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾.[2]

قد أبانت الآيتان عن ثلاثة أشياء: شخص، ومكان، ومقصد، فذكرتا مجيء رجل من مكان بعيد في المدينة ناصحًا ومرشدًا، فلماذا اختلف الأسلوب في الآيتين؛ حيث جاءت الآية الأولى – حيث سورة القصص- مقدمة الشخص على المكان، بينما جاءت الآية الثانية –حيث سورة يس – مقدمة المكان على الشخص مع اتحاد المقصد في كليهما وهو مجيئه ناصحًا ومرشدًا؟

دراسة المسألة:

اختلف المفسرون في توجيه هاتين الآيتين على قولين:

القول الأول: ذهب أصحابه إلى أن الآية الأولى – حيث سورة القصص- والتي فيها مجيء رجل من أقصى المدينة ناصحًا ومرشدًا هذه الآية جاءت على الأصل حيث الترتيب الطبيعي للجملة من مجيء الفاعل عقب الفعل دون فاصل، بخلاف الآية الثانية – حيث سورة يس – فقد جاءت على خلاف الأصل، وما ذلك إلا لأسرار بيانية ولطائف بلاغية في كليهما.

ففي سورة يس بيان أن "الرجل جاء ناصحًا لهم في مخالفة دينهم فمجيئه من البعد أنسب لدفع التهمة والتواطئ عنه، فقدم ذكر البُعد لذلك، وفى القصص: لم يكن نصحه

(١) سورة القصص من الآية (٢٠).

(٢) سورة يس من الآية (٢٠).

لترك أمر يشق تركه كالدين بل لمجرد نصيحة، فجاء على الأصل في تقديم الفاعل على المفعول الفضلة ".[١]

واستدل هؤلاء على ما ذهبوا إليه بما يلي:

أولًا: القواعد العربية، والتي تنص على أن الفعل لا بد له من الفاعل، وأن الفعل مع فاعله كالجزأين للكلمة الواحدة، فكما لا يُفصل بين جزئي الكلمة فكذلك لا يفصل بين الفعل وفاعله[٢]، فهما وجهان لعُملة واحدة.[٣]

ثانيًا: مراعاة السياق القرآني، فسورة القصص "خُصّت بالتقديم؛ لقَوْله قبله (فَوجدَ فِيهَا رجلَيْنِ يقتتلان)[٤] ثمَّ قَالَ "وَجَاء رجل"، وخصت سُورَة يس بقوله "وَجَاء من أَقْصَى الْمَدِينَة " لما جَاءَ فِي التَّفْسِير أَنه كَانَ يعبد الله فِي جبل فَلَمَّا سمع خبر الرُّسُل سعى مستعجلًا".[٥]

ثالثًا: الاحتكام إلى الأصول والضوابط عند تساوي الطرفين في القصة، ففي سورة القصص حيث قصة موسى –عليه السلام – استوى حكم الفاعل والمكان الذي جاء منه، فقدّم ما أصله التقديم وهو الفاعل، بخلاف ما في سورة يس فالتعويل على المكان البعيد؛ لما فيه من التبكيت للقوم المعرضين عن دعوة المرسلين، فكان للتقديم فائدة لم تكن مطلوبة في سورة القصص. أفاده الإسكافي[٦]

---

(١) كشف المعاني لابن جماعة صـ ٣٠٤.

(٢) اللمع في العربية لابن جني، صـ ٣١، حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ٦٥/٢.

(٣) ملاك التأويل ٣٨٣/٢.

(٤) سورة القصص من الآية (١٥).

(٥) البرهان في توجيه متشابه القرآن ١٩٤/١، وينظر: بصائر ذوي التمييز ٣٥٥/١، فتح الرحمن بكشف ما يلتبس من القرآن ٤٢٩/١.

(٦) درة التنزيل وغرة التأويل١٠٨٣/٢.

القول الثاني: ذهب أصحابه إلى أنه لا خلاف بين الأسلوبين، وأن اختلاف التعبيرين من باب التلوين في العبارة، والتفنن في البلاغة.(١)

ودليلهم على ذلك: أن المتعلقات ليس فيما بينها قاعدة مطردة بحيث تكون أصلًا وما دونها يكون فرعًا؛ إذ المتعلقات فيها من الاتساع والتجوز ما لا يكون لغيرها، مما يدل على أن كلا الأمرين جائز، فلا يجوز جعل أحدهما أصلًا والآخر فرعًا، كما أن الآيتين جاءت كل واحدة منهما على طريقة تخالف الأخرى مما يرفع توهم اتحادهما؛ إذ قوله تعالى " من أقصى المدينة" مختلف إعرابها في الآيتين، ففي سورة القصص " الْأَظْهَر فِي هَذِه السُّورَة أَن يكون وَصفا وَفِي يس أَن يكون صلَة "(٢).

الخلاصة:

وبالتأمل في القولين يتضح رجحان القول الأول، وسداد توجيهه، وذلك لعدة أسباب منها:

أولًا: أن تقديم ما حقه التأخير، وتأخير ما حقه التقديم لا يكون إلا لسر بلاغي، وغرض بياني، وهو ما ظهر واضحًا في سورة يس؛ إذ " وجه تقديم " من أقصا المدينة" على "رجل " للاهتمام بالثناء على أهل أقصى المدينة، وأنه قد يوجد الخير في الأطراف ما لا يوجد في الوسط، وأن الإيمان يسبق إليه الضعفاء؛ لأنهم لا يصدهم عن الحق ما فيه أهل السيادة من ترف وعظمة؛ إذ المعتاد أنهم يسكنون وسط المدينة، وأما قوله تعالى في سورة القصص: "وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى " فجاء النظم على الترتيب الأصلي؛ إذ لا داعي إلى التقديم إذ كان ذلك الرجل ناصحا ولم يكن داعيا للإيمان".(٣)

---

(١) البحر المحيط في التفسير ٥٥/٩.

(٢) بصائر ذوي التمييز ٣٥٥/١.

(٣) التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور ٣٦٦/٢٢، وينظر: نظم الدرر للبقاعي ٢٦٢/١٤، ١٠٩/١٦.

ثانيًا: أن الوجه الإعرابي للآية يجب أن يكون موافقًا لمقصد الآية، ومتسق مع سياقها ونظمها، ويظهر ذلك هنا من خلال أن يعرب قوله تعالى: " من أقصى المدينة " صلة في الآيتين لا كما قال أصحاب القول الثاني.

قال الشهاب الخفاجي: " الظاهر أنّ "من أقصى المدينة" صلة "جاء"؛ لأنّ سرعته لبُعد المحل الذي جاء منه، واهتمامه بأخباره، ولذا قدّم في سورة يس؛ لدفع احتمال الوصفية، وأمّا تأخيره هنا، فعلى الأصل، وجعْله في أحدهما صفة وفي الآخر صلة لا وجه له ".(١)

ومما يجب التنبه إليه، هو: أن الرجل في الآيتين مختلف؛ إذ هو في سورة القصص الرجل المؤمن من آل فرعون، وفي سورة يس هو حبيب النجار، وكان قد آمن بالرسل عند ورودهم القرية.(٢)

والله –تعالى – أعلم بأسرار كتابه.

---

(١) عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي ٢٨٨/٧، وينظر: تفسير الآلوسي ٣٩٨/١١.

(٢) التفسير البسيط للواحدي ٣٦٣/١٧، ٤٦٦/١٨.

وشبيه بهذه المسألة من حيث تقديم الصفة ومن الفصل بين الفعل وما تعلق بالفعل، ما جعل العلماء يختلفون اختلافهم في هذه المسألة، وذلك ما قاله الله – تعالى–: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾ سورة البقرة من الآية (٢٦٤)، وقوله سبحانه: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ سورة إبراهيم من الآية (١٨). ينظر: البرهان في توجيه متشابه القرآن صـ ١٥٤، فتح الحمن بكشف ما يلتبس من القرآن صـ ٢٩٣، كشف المعاني في المتشابه من المثاني صـ ١٢٠، غرائب القرآن ورغائب الفرقان ١٨٦/٤، زهرة التفاسير ٤٠١١/٨، البحر المحيط ٤٢٣/٦.

خاتمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب، هدى وذكرى لأولي الألباب، والصلاة والسلام على سيدنا محمد صلاة لا يحصيها العدّ والحساب، وبعد،

ففي نهاية المطاف في هذا البحث الذي لا ادعي فيه الكمال، ولكن حسبي أنني بذلتُ فيه قصارى جهدي وطاقتي، فما كان فيه من توفيق فمن الله – تعالى– وحده، وما كان من خطأ أو زلل – وهو واقع لا محالة– فمني، والله أسأل الهداية والتوفيق، فهناك بعض النتائج، هي في الحقيقة أهداف يودّ البحث تحقيقها؛ إذ هي الثمرة التي ينبغي تجنيها، والفائدة التي يتطلب الحصول عليها، والغاية التي يريد الوصول إليها، وأهمها:

١– القرآن الكريم كتاب هداية وإعجاز، ولكي يتم معرفة ذلك والاستفادة منه فلا بد من تحصيل جانب كبير من العلوم العقلية والعربية والكونية؛ لفهم القرآن الكريم أولًا وللدفاع عنه ثانيا بالحجج القاطعة والبراهين الساطعة.

٢– القرآن الكريم منطوٍ على وجوه كثيرة من الإعجاز منها: خلوه من التناقض؛ لما فيه من فصاحة ألفاظه الجزلة الفائقة الرائقة، وإبداع نظمه وانسجام كلماته المؤتلفة المتوافقة، وحُسن معانيه المتدفقة، فعليه فلا يملّ منه الأتقياء، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على مرّ الدوام.

٣– هذه الدراسة من شأنها أن تزيد ارتباط المسلم بالقرآن الكريم؛ لما في ذلك من التأمل فيه، وتدبر معانيه، وهذا يفتح الباب لمجال البحث والتنقيب؛ لكي تنمو المواهب، وتتسع المدارك، الأمر الذي يجعل المسلم يستخرج كنوز المعارف والعلوم ما يعود بالخير الوفير والنفع الكثير على الناس أجمعين.

٤– العلاقة بين العلوم الإسلامية والعربية سواء علوم الوسائل منها أو علوم المقاصد علاقة تكامل.

٥- أنه "لا بقاء للأصل دون الفرع، ولا وجود للفرع دون الأصل، ولا فرق بين الأصل والفرع إلا في شيء واحد، وهو: أن وجود الفرع وبقاءه جميعًا يستدعي وجود الأصل، وأما وجود الأصل فلا يستدعي وجود الفرع، فبقاء الأصل بالفرع ووجود الفرع بالأصل ".(١)

٦- أن من الأصول التي انتهجها العلماء في توجيه متشابه النظم القرآني: الترتيب المصحفي، والأمور الطبيعية، والرسم القرآني، والقواعد العربية.

ويوصي البحث بجملة من التوصيات، منها:

١- العمل على توظيف العلوم الإسلامية والعربية – كما كان العلماء السابقين- لخدمة القرآن الكريم؛ للاستفادة من هداياته، والوقوف على مقاصده، والدفاع عنه ضد الطاعنين والمشككين فيه.

٢- الربط بين الأصالة والمعاصرة والتراث والتجديد، حيث إظهار مسالك العلماء في دفع ما يوهم ظاهره التعارض، وأن ما جاء ممن يوهم ظاهره التعارض إنما هو في ذهن الناظر وفهمه، وليس في الواقع ونفس الأمر.

وصلّ اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد في كلّ لمحة ونَفَس، عدد ما وسعه علم الله –تعالى – وكما يليق بكمالاته.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

كتبه راجي عفو ربّه الكريم
أحمد حسين مهدي الأكرت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد
في كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنين بالقاهرة

(١) إحياء علوم الدين للغزالي٤/١٩، طبعة خاصة للأزهر الشريف١٤٤١هـ- ٢٠٢٠م.

فهرس أهم المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١) إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر لابن البناء الدمياطي ت/ أنس مهرة، ط: دار الكتب العلمية – لبنان، (٣)٢٠٠٦م – ١٤٢٧هـ

٢) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، ت/ محمد أبو الفضل إبراهيم، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٣٩٤هـ= ١٩٧٤م.

٣) إحياء علوم الدين للغزالي، طبعة خاصة للأزهر الشريف١٤٤١هـ- ٢٠٢٠م.

٤) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود، ط: دار إحياء التراث العربي- بيروت، (٤)١٤١٤هـ=١٩٩٤م.

٥) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول للشوكاني، ت/ الشيخ أحمد عزو عناية، ط: دار الكتاب العربي، (١)١٤١٩هـ – ١٩٩٩م.

٦) الأشباه والنظائر للسيوطي، ط: دار الكتب العلمية، (١)١٤١١هـ – ١٩٩٠م.

٧) أصول الفقه للشيخ محمد أبي زهرة، ط: دار الفكر العربي، عام ١٤٣٦هـ-٢٠١٥م.

٨) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي، ط: دار الكتاب العربي – بيروت، (٨)١٤٢٥هـ= ٢٠٠٥م.

٩) الإعجاز في دراسات السابقين دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها للشيخ/ عبد الكريم الخطيب، ط: دار الفكر العربي، (١) ١٩٧٢م.

١٠) إعراب القرآن للنحاس، ت: د/ زهير غازي زاهد، ط: عالم الكتب، عام١٤٠٩هـ- ١٩٨٨م.

١١) الاقتراح في أصول النحو وجدله للسيوطي، حققه وشرحه: د/ محمود فجال، ط: دار القلم، دمشق (١) ١٤٠٩ – ١٩٨٩م.

١٢) الإقناع في القراءات السبع لابن الباذش، ط: دار الصحابة للتراث، دون تاريخ.

١٣) إملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات العكبري، ت/ إبراهيم عطوه عوض، ط: المكتبة العلمية- لاهور.

١٤)البحر المحيط في أصول الفقه للزركشي، ت/ د. محمد محمد تامر، ط: دار الكتب العلمية، عام١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
١٥)البحر المحيط في التفسير لأبي حيان، ط: دار الفكر- بيروت، عام ١٤٣٢هـ=٢٠١٠م.
١٦)البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان = أسرار التكرار في القرآن للكرماني، ت/ عبد القادر أحمد عطا، ط: دار الفضيلة، دون تاريخ.
١٧)البرهان في علوم القرآن للزركشي، ت/ محمد أبو الفضل، ط: دار الإحياء عيسى الحلبي، (١) ١٣٧٦هـ=١٩٥٧م.
١٨)بصائر ذوي التمييز في تفسير الكتاب العزيز للفيروز آبادي، ت/ محمد علي النجار، ط: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – القاهرة، عام ١٤١٦هـ= ١٩٩٦م.
١٩)تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي، ط: دار الهداية، بدون تاريخ.
٢٠)تأويلات أهل السنة للماتريدي، ت: د/ مجدي باسلوم، ط: دار الكتب العلمية – بيروت، (١) ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥م.
٢١)التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور، ط: دار سحنون- تونس، بدون تاريخ.
٢٢)التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي، ت: د/عبد الله الخالدي، ط: دار الأرقم – بيروت، (١) ١٤١٦م
٢٣)التعريفات للجرجاني، ط: دار الكتب العلمية بيروت، (١) ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م.
٢٤)تفسير القرآن الحكيم المسمى بتفسير المنار للشيخ/ محمد رشيد رضا، ت/ فؤاد سراج، ط: مكتبة التوفيقية.
٢٥)التفسير الوسيط للقرآن الكريم، أ د / محمد سيد طنطاوي، ط: دار السعادة- القاهرة، عام ٢٠٠٧م.
٢٦)التفسير والمفسرون في ثوبه الجديد أ د/ عبد الغفور محمود مصطفى جعفر، ط: دار السلام، (٢) ١٤٣٣هـ =٢٠١٢م.
٢٧)توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك للمرادي، ت/ عبد الرحمن علي سليمان، ط: دار الفكر العربي، (١) ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٨م.

٢٨)ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني، ت: محمد خلف الله أحمد، د/ محمد زغلول سلام، ط: دار المعارف- بمصر، (٣) ١٩٧٦م.
٢٩)جامع البيان في تأويل القرآن للطبري، ت/ هاني الحاج وآخرون، ط: دار التوفيقية- القاهرة، بدون تاريخ.
٣٠)الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور لابن الأثير، ت/ مصطفى جواد، ط: مطبعة المجمع العلمي، عام ١٣٧٥هـ.
٣١)حاشية ابن التمجيد على تفسير البيضاوي، ضمن حاشية القونوي على البيضاوي، ت/ عبد الله محمود عمر، ط: دار الكتب العلمية- بيروت، (١)١٤٢٢هـ=٢٠٠١م.
٣٢)حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، ط: دار الكتب العلمية بيروت، (١) ١٤١٧هـ -١٩٩٧م.
٣٣)حاشية شيخ زاده على تفسير البيضاوي، ط: مكتبة الحقيقة، عام١٤١٩هـ=١٩٩١م.
٣٤)الحجة في القراءات السبع لابن خالويه، ت/ د. عبد العال سالم مكرم، ط: دار الشروق – بيروت، (٤) ١٤٠١هـ.
٣٥)الخصائص لابن جني، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، (٤).
٣٦)خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية للمطعني، ط: مكتبة وهبة، (١) ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.
٣٧)خواطر حول القرآن الكريم للشيخ الشعراوي، ط: مطابع أخبار اليوم.
٣٨)الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي، ت/ أحمد محمد الخراط، ط: دار القلم، دمشق.
٣٩)درة التنزيل وغرة التأويل للإسكافي، ت: د/ / محمد مصطفى، ط: جامعة أم القرى، (١)١٤٢٢هـ=٢٠٠١م.
٤٠)دلائل الإعجاز في علم المعاني، ت/ أبو فهر محمود محمد شاكر، ط: المدني بالقاهرة، (٣) ١٤١٣هـ =١٩٩٢م.
٤١)رسم المصحف العثماني وأوهام المستشرقين في قراءات القرآن الكريم د/ عبد الفتاح شلبي، ط: مكتبة وهبة.

٤٢) روح البيان في تفسير القرآن لإسماعيل حقى البرسوي، ط: دار الفكر – بيروت، بدون تاريخ.
٤٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للآلوسي، ط: دار التوفيقية، القاهرة، بدون تاريخ.
٤٤) شرح التصريح بمضمون التوضيح للشيخ خالد الأزهري، ط: دار الكتب العلمية – بيروت، (١) ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.
٤٥) شرح المفصل لابن يعيش، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، (١) ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م.
٤٦) شرح شافية ابن الحاجب للرضي الإستراباذي، ت/ محمد نور الحسن وآخرون، ط: دار الكتب العلمية بيروت، عام ١٣٩٥هـ – ١٩٧٥م.
٤٧) صحيح البخاري، ت/ محمد زهير بن ناصر الناصر، ط: دار طوق النجاة، (١)١٤٢٢هـ.
٤٨) صحيح مسلم، ت/ محمد فؤاد عبد الباقي، ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت.
٤٩) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ليحيى العلوي، ط: المكتبة العنصرية – بيروت، (١) ١٤٢٣هـ.
٥٠) علم أصول الفقه وخلاصة تاريخ التشريع لـ عبد الوهاب خلاف، ط: مطبعة المدني.
٥١) عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي، للشهاب الخفاجي، ت/ الشيخ: عبد الرزّاق المهدي، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، (١)١٤١٧هـ=١٩٩٧م.
٥٢) غرائب التفسير وعجائب التأويل للكرماني، ط: مؤسسة علوم القرآن – بيروت.
٥٣) فتح البيان في مقاصد القرآن، للقنوجي، ط: المَكتبة العصريَّة- بَيروت، عام ١٤١٢هـ=١٩٩٢م.
٥٤) فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لزكريا الأنصاري، ت/ محمد علي الصابوني، ط: دار القرآن الكريم- بيروت، (١)١٤٠٣هـ=١٩٨٣م.

٥٥)فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، وهو حاشية الطيبي على الكشاف، ط: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، (١)١٤٣٤هـ=٢٠١٣م.
٥٦)الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري، ت/ محمد إبراهيم سليم، ط: دار العلم- مصر.
٥٧)القواعد الفقهية وتطبيقاتها على المذاهب الأربعة د/ محمد مصطفى الزحيلي، ط: دار الفكر – دمشق، (١) ١٤٢٧ هـ – ٢٠٠٦ م.
٥٨)الكتاب لسيبويه، ت/ عبد السلام محمد هارون، ط: مكتبة الخانجي، القاهرة، (٣) ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.
٥٩)كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة، ط: د/ عبد الجواد خلف، ط: دار الوفاء . المنصورة، (١) ١٤١٠ هـ – ١٩٩٠م.
٦٠)لسان العرب لابن منظور، ط: دار صادر – بيروت، (٣)١٤١٤هـ.
٦١)لطائف وأسرار خصوصيات الرسم العثماني للمصحف الشريف د/ عبد العظيم المطعني، هدية مجلة الأزهر جمادى الأولى ١٤٤٠هـ= يناير ٢٠١٩م.
٦٢)لطائف وأسرار خصوصيات الرسم العثماني للمصحف الشريف د/ عبد العظيم المطعني، هدية مجلة الأزهر جمادى الأولى ١٤٤٠هـ= يناير ٢٠١٩م.
٦٣)لمع الأدلة في أصول النحو لابن الأنباري ت/ أحمد عبد الباسط، ط: دار السلام (١) ١٤٣٩هـ =٢٠١٨م
٦٤)المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير، ت/ أحمد الحوفي، بدوي طبانة، ط: دار نهضة مصر.
٦٥)المحرر في علوم القرآن، د/ مساعد الطيار، ط: مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الإمام الشاطبي، (٢) ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م.
٦٦)المدخل لدراسة القرآن الكريم، د/ محمد أبو شهبة، ط: كتبه السنة – القاهرة، (٢) ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٣ م.

٦٧)معاني القراءات للأزهري، ط: مركز البحوث في كلية الآداب – جامعة الملك سعود، (١) ١٤١٢ هـ – ١٩٩١ م.

٦٨) المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية، ط: دار الدعوة، بدون تاريخ.

٦٩) مغني اللبيب لابن هشام، ت/ د. مازن المبارك وآخر، ط: دار الفكر – دمشق، (٦) ١٩٨٥م.

٧٠) مفاتيح الغيب للرازي، ت/ عماد زكي البارودي، ط: دار التوفيقية، عام ٢٠٠٣م.

٧١) مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني، ط: دار القلم– دمشق.

٧٢) المقنع في رسم مصاحف الأمصار للداني، ت/ محمد الصادق قمحاوي، ط: مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.

٧٣) مناهل العرفان في علوم القرآن للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني، ت/ أحمد بن علي، ط: دار الحديث– القاهرة، عام ١٤٢٢هـ=٢٠٠١م.

٧٤) النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم أ د/ محمد عبد الله دراز، ت/ أحمد مصطفى فضلية، ط: دار القلم – القاهرة، عام ١٤٢٦هـ= ٢٠٠٥م.

٧٥) النحو الوافي د / عباس حسن، ط: دار المعارف، (١٥) دون تاريخ.

٧٦) النشر في القراءات العشر لابن الجزري، ت/ علي محمد الضباع، المطبعة التجارية الكبرى.

٧٧) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي، ط: دار الكتاب الإسلامي– القاهرة، بدون تاريخ.

٧٨) نهاية السول شرح منهاج الأصول للأسنوي، ط: دار الكتب العلمية –بيروت، (١) ١٤٢٠هـ– ١٩٩٩م.

فهرس الموضوعات

ملخص البحث ١٢٥٩

مقدمة ١٢٦١

خطة البحث:..... ١٢٦٢

صعوبات البحث:..... ١٢٦٣

أسئلة البحث ومشكلاته: ١٢٦٣

الدراسات السابقة:..... ١٢٦٤

منهجي في البحث،..... ١٢٦٤

تمهيد..... ١٢٦٥

المبحث الأول: مراعاة الأصل حيث الترتيب المصحفي:..... ١٢٧٠

المطلب الأول: في " تَبِع " و "اتّبع ": ١٢٧٢

المطلب الثاني: في " أيامًا معدودة " و "أيامًا معدودات ": ١٢٧٦

المطلب الثالث: في " نجّى " و "أنجى ":..... ١٢٨٠

المطلب الرابع: في بيان مَن أرسل إليهم موسى – عليه السلام–:..... ١٢٨٦

المبحث الثاني: مراعاة الأصل حيث الأمور الطبيعية:..... ١٢٩٠

المطلب الأول: في لَهْوِ الحياة الدنيا ولَعِبِهَا:..... ١٢٩٢

المطلب الثاني: في الضر والنفع:..... ١٢٩٦

المطلب الثالث: في تأكيد المطعوم دون المشروب ١٣٠٢
المبحث الثالث: مراعاة الأصل حيث الرسم القرآني (العثماني): ١٣٠٧
المطلب الأول: ياء الإضافة بين الإثبات والحذف:..... ١٣٠٩
المطلب الثاني: ضمير التكلم بين الإثبات والحذف:..... ١٣١٢
المطلب الثالث: في بيان التسبيح قبل طلوع الشمس وقبل غروبها:..... ١٣١٦
المبحث الرابع: مراعاة الأصل حيث القواعد العربية:..... ١٣٢٠
المطلب الأول: في بيان علم الله – تعالى – بالمضلين عن سبيله:..... ١٣٢٢
المطلب الثاني: " خلائف" بين التعريف والتنكير: ١٣٢٧
المطلب الثالث: في متعلق الظرف: ١٣٣١
المطلب الرابع: في بيان الارتباط بين الفعل والفاعل:..... ١٣٣٥
خاتمة ١٣٣٩
فهرس أهم المصادر والمراجع..... ١٣٤١
فهرس الموضوعات ١٣٤٧